الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكَر: ابتذال المبدأ.

لا يُطلَق مُصطَلَح الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكَر إلّا وتبادرت إلى الذّهن معاني انتهاك الخصوصيّة، والتّسلُّط، وإجبار النّاس على الدّين، وكبت الحُرّيّات. بصفة عامّة فإنّ هذا المصطلح قد تعرَّض للابتذال والتّلوّث، لذا نحاول هنا إعادة التّعريف بهذا المبدأ، ونُبرِز صوره المُستنيرة، وأسباب ابتذاله، وشروط تطبيقه.

ماذا الأمر بالمعروف ؟

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...). [سورة البقرة – الآية ٣٠.]

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ...). [سورة ص – الآية ٢٦.]

الإسلام يعتبر الإنسانَ خليفةَ الله في الأرض، خليفةً تقوم به القيم والأخلاق، فيقيمُ العدلَ ويرفع الظُّلمَ ويُعمّر الأرضَ، هذه هي الأمانة الّتي أَبَتْ السّماءُ والأرضُ والجبالُ أن يحملنها، وحملها الإنسانُ.

لذلك كانت المَهام العُظمى للإنسان :تزكية النّفس، وعبادة الله، وتعمير الكون. وبالتّالي لا يكتمل إيمانُ المرءِ إن أراد أن ينعزل عن الواقع ويكتفي بالعبادة والذّكر، بل أحد واجباته وفروضه هي عمارة الأرض، بما يتضمّنه من الانغماس في الواقع، والاهتمام بمشكلاته، ومتابعة أحداثه، ومقاومة الظُّلم، والتّعاون على البرّ.

ولن يكتمل عُمران إلا بشرط ودعامة: الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكَر، ذلك هو شرط صلاح الأُمم ورهن خيريّتها.

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ] .(...سورة آل عمران – الآية ١١٠.]

لذلك قد أوجب الله على كلّ مسلم فريضة الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكَر، فلا يفوته معروف إلا وقد أمر به، ولا يمرّ أمامه مُنكَر إلا ويحاول منعه.

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ). [سورة آل عمران – الآية ١٠٤.]

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ...). [سورة التّوبة – الآية ٧١.]

يقول "ابن حزم": «اتّفقت الأُمّة كلّها على وجوب الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكَر بلا خلاف من أحدٍ منهم».

وقد اعتبر "المعتزلة" الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكَر أصلًا من الأصول الخمسة للدّين.

ويقول "الغزّاليّ": «إنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكَر هو القُطب الأعظم في الدّين، وهو المُهِمُّ الّذي ابتعث الله له النّبيّين، ولو طُوي بساطه وأُهمل عمله، لتعطّلت النّبوّة، واضمحلّت الدّيانة، وفشت الضّلالة، وخربت البلاد، وهلك العباد».

ويعتبر "بيجوفيتش" أنّ هذا المبدأ كافٍ لتعريف الإسلام، فيقول: «إنّ الإسلام هو دعوة إلى أُمّة تأمر بالمعروف وتنهى عن المُنكَر، أي تؤدّي رسالة أخلاقيّة».(٣(

وقد أثار هذا المفهوم "مايكل كوك "حتّى كتب عنه مُجلّدًا ضخمًا، وعقد في بدايته مقارنة بين هذا المفهوم في الغرب والإسلام، فقال: «ليس لدينا -نحن الغربيّين- في حياتنا اليوميّة مصطلح يشرح هذا الواجب، كما ليست لدينا نظريّة حول الأوضاع الّتي تنطبق عليها، والإرغامات الّتي تسقطه. إنّ القيمة الأخلاقيّة موجودة عندنا، لكنّها ليست من القيم الّتي أولتها ثقافتُنا صياغةً متطوّرةً ومتكاملة.

صحيح أنّ الحقوقيّين والفلاسفة يتناقشون حول الشّروط الّتي تُحتّم علينا واجب الإغاثة، لكن ذلك النّقاش يتم ضمن نطاق ضَيّق بين أهل الاختصاص، ولا يمكن اعتباره ملكًا لثقافتنا في كلّيّتها. لم أسمع أنا شخصيًّا بذلك إلى أن انتبهت إليه في بحوثي عن الإسلام».(٤(

التّطبيقات

أوّلًا: في السّياسة.

لا معروف أعظم من إقامة العدل والحُرّيّة والمساواة، ولا مُنكَر أبشع من الظُّلم والاستبداد، وما يَنتُج عن الاستبداد من تحريف الدّين، وهدم الأخلاق، وسجن العلماء، وتعذيب الأبرياء، وسرقة المال العام، واغتصاب الحُكم، لذلك فأولى غايات الأمر بالمعروف هي إقامة الحُكم الرّشيد العادل وإزالة الاستبداد الظّالم .

لذلك نَصَّ النّبيّ على أمر الحكّام تحديدًا بالمعروف، ونهيهم عن المُنكَر، وقول الحقّ في وجوههم دون خوف أو جُبن، فقال:

»سَيّد الشُّهداء "حمزة"، ورجلٌ قام إلى إمامٍ جائرٍ فأمره ونهاه، فقتله«(٥.(

»إنّ من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر».(٦(

وقال "عبادة بن الصّامت": «بايعنا رسول الله على السمع والطّاعة.. وأن نقول بالحقّ حيثما كُنّا، لا نخاف في الله لومة لائم».(٧(

وقد كان المسلمون في الصّدر الأوّل لا تنقطع رقابتهم على حُكّامهم، ولا يتوقّف نُصحهم ونقدهم، بل مقاومتهم وصَدّهم إن انحرفوا .

فهذا "أبو بكر" يقول في خُطبة البَيعَة: «أيّها النّاس فإنّي قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني، أطيعوني ما أطعت اللهَ ورسولَه، فإذا عصيت اللهَ ورسولَه فلا طاعة لي عليكم».(٨(

وقال "عمر": «أرأيتم لو ترّخصت في بعض الأمر، ما كنتم فاعلين؟» فقال "مُحمَّد بن مسلمة": «لو مِلْت عدلناك، كما يُعدَل السَّهم في الثّقاف»، فقال "عمر": «الحمد لله الّذي جعلني في قومٍ إذا مِلْت عدلوني».(٩(

ويُروى أنّ "إبراهيم الصّائغ" أتى _أبا مسلم الخراسانيّ" فوعظه، فقال له "أبو مسلم": «انصرف إلى منزلك، فقد عرفنا رأيك». فرجع "إبراهيم" ثمّ تحنَّط وتكفَّن، وأتاه وهو في مَجمَع من النّاس، فوعظه وكلّمه بكلامٍ شديد، فأمر "أبو مسلم" بقتله، فقُتل وطُرح في بئر.(١٠(

وحين خطب "المغيرة بن شُعبة" وشرع في شتم "عليّ بن أبي طالب" وأصحابَه كما تعوَّد الأمويّون، وثب "حُجْر بن عُديّ" وقال له: «أنا أشهد أنّ من تذمّون وتُعيِّرون لأحقّ بالفضل، وأن من تُزكّون أولى بالذّمّ. مُرْ لنا بأرزاقنا وأعطياتنا، فإنّك قد حبستها عنّا، وليس ذلك لك، وقد أصبحت مولعًا بذمّ أمير المؤمنين»، فتعاطف النّاس معه حتى قام أكثر النّاس يقولون: «صدق والله حُجْر»، واستمرّت ثورة "حُجْر "وأصحابه حتّى قتلهم "معاوية".(١١(

وحين ورَّث "معاويةُ" الخلافةَ لابنه "يزيد" ، ثار "الحُسين" ورفض البَيعَة ليزيد، وقال: «قد نزل بنا ما ترون، إنّ الدّنيا قد تغيّرت وتنكَّرت، وأدبر معروفها، واستمرّت حتّى لم يبق منها إلّا صبابةٌ كصبابة الإناء، وإلّا خسيسُ عيشٍ كالمرعى الوبيل، ألا ترون الحقَّ لا يُعمل به، والباطلَ لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله، وإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا ندمًا»، وفضَّل "الحُسين" القتل على مبايعة "يزيد"، وبالفعل قتلوه وطافوا برأسه في المدائن. ورأس "الحُسين" أصبحت تحمل درسًا جليًّا: الكرامة خيرٌ من الحياة.(١٢(

وحين رأى وفدٌ من أهل المدينة فُجر "يزيد" وطغيانه، نقضوا بَيعته وثار ضِدّه أهلُ المدينة، وقال "عبد الله بن حنظلة": «والله ما خرجنا على "يزيد" حتّى خِفنا أن نُرمى بالحجارة من السّماء، إنّ رجلاً ينكح الأمّهات والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويَدَعُ الصّلاة، والله لو لم يكن معي أحدٌ من النّاس لأبليت الله فيه بلاءً حسنًا»، ودخل "يزيد" المدينة واغتصب نساءها، وقتل أطفالها، وسرق أموالها.(١٣(

وثار "عبد الله بن الزُّبير" ضِدّ "عبد الملك بن مروان" حتى قُطعت رأسه وصُلبت جُثّته.

وظُلْمُ "الحَجّاج" وسفكُه للدّماء لم يمرّ دون مقاومة، بل ثار ضِدّه "ابن الأشعث"، وخطب في النّاس: «أيّها النّاس، ألا ترون هذا الجبّار – يعنى "الحَجّاج"- وما يصنع بالنّاس؟!

ألا تغضبون لله؟! ألا ترون أنّ السُنَّة قد أُمِيتت، والأحكام قد عُطِّلَت، والمُنكَر قد أُعلِن، والقتل قد فشا؟ اغضبوا لله، واخرجوا معي، فما يَحِلُّ لكم السّكوت».(١٤(

فلم يزل يُحرِّض النّاس حتّى ثاروا معه، وكان أغلبهم من العلماء والقُرّاء حتى سُمّيت (ثورة القُرّاء .(

وثار "زيد بن عليّ" ضِدّ "هشام بن عبد الملك" حتى قُتل، ونبشوا قبره، وصلبوا جُثّته.

وثار "يزيد بن الوليد" ضِدّ "الوليد بن يزيد"، وانتصر عليه.

وثار "النّفس الزّكيّة" ضِدّ "أبي جعفر المنصور" حتّى قُتل.

كل هذا الإرث من المُعارَضات والاحتجاجات والثّورات في تاريخ أُمَّتنا كان تطبيقًا عمليًّا وتجسيدًا واقعيًّا لمبدأ الأمر بالمعروف.

يقول "علي شريعتي": «كان أقلّ انحراف من الحكومة باعثًا كافيًا لتقاطُر النّاس على المسجد، وإثارة (صداع) عند الهيئة الحاكمة».(١٥(

ويقول "راشد الغنوشي": «واجب الأُمّة رقابة الحكّام، وأدلّة هذا الوجوب من الكتاب والسُّنّة والإجماع وسير الخلفاء كثيرة، وتدور كلّها حول المبدأ الإسلاميّ العظيم: مبدأ الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكَر، الّذي يُمثِّل بحقّ السُّلطة الرّابعة في الدّولة، السُّلطة القوّامة على بقيّة السُّلطات، سلطة الأُمّة المباشرة، أي سلطة الرّأي العام عبر جهود الأفراد ومؤسَّسات المُجتمَع، من صُحُف ومساجد وجامعات ومراكز، إلخ».(١٦(

ثانيًا: إغاثة المضطهدين.

الجهاد في الإسلام له دافعين:

الدِّفاع عن النَّفْس.

الدِّفاع عن الغير: لم يكتفِ القرآن بدفاع المسلمين عن أنفسهم، بل أمرهم أن يجاهدوا، ويُضحّوا بأموالهم وحيواتهم، ويتركوا أولادهم، وزرعهم، وتجارتهم، ويجاهدوا للدفاع عن المستضعفين، المضطهدين، مهما كان لونهم، ودينهم، ولغتهم، وقضيّتهم.

)وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ...). [سورة النّساء – الآية ٧٥.[

فلو أنّ مُعتَدٍ اضطهد يهوديًّا ليُغيِّر دينَه، وجب على المسلمين -متى تمكّنوا- أن يحاربوا المُعتدي ليرفعوا الظّلم عن اليهوديّ، ويتمكّن من التّعبُّد بدينه الّذي ارتضاه لنفسه، حتّى لا تكون فتنة، وحتّى لا يكون إكراهًا في الدّين!

يقول "القرضاويّ": «المسلمون مدعوّون لإغاثة الملهوفين، وإنقاذ المستضعفين في الأرض من خلق الله، وإن لم يكونوا مسلمين، لأنّ رفع الظّلم والأذى عن جميع النّاس مطلوب من المسلم إذا كان قادرًا».(١٧(

)وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ). [سورة الأنفال – الآية ٣٩.[

يقول "محمّد رشيد رضا": «إنّ المعنى بتعبير هذا العصر: ويكون الدّين حُرًّا، أي يكون النّاس أحرارًا في الدّين، لا يُكرَه أحدٌ على تركه إكراهًا، ولا يؤذى ويُعذَّب لأجله تعذيبًا، ويدلّ على العموم قوله تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) [سورة البقرة – الآية ٢٥٦].».(١٨(

...)وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا...). [سورة الحجّ – الآية ٤٠.[

على المسلمين أن يدفعوا أهل الباطل والظُّلم والاحتلال والاضطهاد، فتتحرّر المساجد والبِيَع والصّوامع، ويتعبّد كلّ امرئ بما يدين له بلا إكراه، وتلك سُنّة الله في الكون، لولا دَفْع الصّالحين للفاسدين لهُدِمَت دُور العبادة بكلّ أنواعها.

ولا تقتصر إغاثة المضطهدين في صورة الحماية العسكريّة للجيوش، بل على المستوى الفرديّ، ما كان لمسلم غيور صاحب مروءة وخُلُق أن يقف موقفًا يرى أمامه مظلومًا دون أن ينصره ويحميه، سواء في صورة إنقاذ فتاة من التّحرُّش، أو الشّهادة لصالح متّهم بريء، أو مساعدة محتاج، أو رعاية ذوي احتياجات خاصّة، إلخ.

ثالثًا: في العلم.

تدخَّل مفهوم الأمر بالمعروف في العلم، إذ ألزم العلماء بالدّعوة إلى كلّ معروف، بلا كتمان، والنّهي عن كلّ مُنكَر وانحراف في الفكر، بلا محاباة.

إن المتتبّع لتاريخ العلوم الإسلاميّة لا يكاد يجد مسألة إلا واختلف فيها العلماء، ويوجد أكثر من رأي، وأحيانًا أكثر من رأيين، وبهذه الخلافات يزداد العلم ثراءً واتّساعًا، حتى قيل: من لم يقرأ اختلاف العلماء لم يذق رائحة العلم .

هذا الاختلاف ينُمّ عن بيئة علميّة نقديّة لم تُهادِن وتحفظ وتكرّر، بل خاضوا معارك فكريّة، ولم يخشوا النّقد والرّدّ والجدال. ومن هنا راجت المناظرات، وتكوّنت الفِرَق، وتعدّدت المذاهب، واختلف أتباع المذهب الواحد.

مثلًا كَتَب "الجاحظُ" (فضيلة المعتزِلة)، فردّ عليه "ابن الرّاونديّ" الملحد بكتابه (فضيحة المعتزِلة(، فردّ عليه "الخياط" بكتابه (الانتصار والرّدّ على ابن الرّاونديّ الملحد.(

وحتّى الديانات الأخرى والعقائد والفِرَق تفحّصوها وانتقدوها، فكتب "الأشعريّ" (جمل المقالات)، وكتب "المسعوديّ" (المقالات في أصول الدّيانات)، وكتب "ابن حزم" (الفصل في المِلل والأهواء والنِّحَل)، وكتب "الشّهرستانيّ" (المِلل والنِّحَل)، وكتب "الرّازيّ" (اعتقادات المسلمين والمشركين.(

وفي علم الحديث لم يتركوا مُحدِّثًا إلا وتفحّصوا عدالته، ولم يهادِنوا في عدالة الرِّجال، فهذا "عليّ بن المدينيّ" يعلم أنّ أباه ضعيف في الحديث، والنّاس تأخذ منه، فقال: «أبي ضعيف في الحديث».(١٩(

وهذا "أبو داود" يعلم أنّ ابنه كذّاب، والنّاس تروي عنه، فقال: «ابني كذاب».(٢٠(

ابتذال المبدأ.

انحدر مفهوم الأمر بالمعروف لمستويات من الابتذال والإسفاف والسّذاجة والعنف، فتشوّه المفهوم وأصبح عِبئًا على الدّين أكثر منه مُقوّمًا للأخلاق.

أوّلًا: محاباة الحُكّام.

أوّل خطوات ابتذال المبدأ أن تملّص الحكّام من تحت عباءته، فسادت الفتاوى الّتي تُحرّم معارضة الحكّام، وتُحرّم الخروج عليهم، وتأمر بطاعة وليّ الأمر مهما فعل .

فنتج عن ذلك أن تعامى العلماء عن مُنكَرات الحكّام، فتركوهم يُعذّبون العلماء، ويقطعون الرّؤوس، ويغتصبون الحكم، ويورّثون الخلافة، ويسرقون الأموال، ويبنون قصورًا فخمة ليسهروا فيها مع الخمر والرّاقصات العرايا! وتفرَّغ العلماء لمُنكَرات الشّعب!

"يزيد بن عبد الملك بن مروان" أتى بأربعين شيخًا، فشهدوا له: «ما على الخلفاء حساب ولا عذاب»! (٢١(

ثانيًا: التّفرُّغ لمُنكَرات المرأة.

بعد أن عجز المجتمع عن إنكار مُنكَرات الحكّام وأصحاب النّفوذ والمال، تفرّغ لإنكار مُنكَرات المقهورين والضُّعفاء. أو بصيغة صريحة: تفرّغ لمن يقدر عليهم.

وأضعف أفراد المجتمع هم النساء، لذلك تفرّغ مبدأ إنكار المُنكَر لتتبّع كلّ فعل وحركة للمرأة: ملابسها، شعرها، حجابها، نقابها، صوتها، عملها، اختلاطها بالرّجال، قيادتها للسّيارة، سفرها، خروجها من بيتها، عصيانها لزوجها، إلخ! حتى بات المجتمع كلّه آمرين)المرأة) بالمعروف وناهين (المرأة) عن المُنكَر! وأصبحت الخُصلة الشّاردة من شعرها، ومقاس ملابسها من أولويّات الأمر بالمعروف!

ثالثًا: اختلال الأولويّات.

عام ٢٠٠٢ نشب حريق هائل في مدرسة بنات في مكّة، وسارع الأهالي ورجال الإطفاء والمسعفين لإنقاذ الفتيات، لكن أعضاء من هيئة "الأمر بالمعروف" منعوا رجال الإطفاء والأهالي من إنقاذ البنات، كما منعوا البنات من الخروج، وأغلقوا البوّابات، والسّبب؟ لأنّ البنات غير محجّبات، فيحرُم خروجهنّ بلا حجاب! وكان نتاج ذلك وفاة ١٥ فتاة(22) !

أحد أهمّ سمات الجاهل: اختلال الأولويّات؛ إذ يقف على قمّة أولويّاته في إنكار المُنكَر: ملابس النّساء والاختلاط والخمر والغناء! وهي كلها تدور حول هاجس واحد: الجنس، فكل ما اقترب من المرأة، أصبح بالضرورة يُفضي إلى الجنس، وكلّ الجنس رذيلة، وبالتّالي فهو مُنكَر، ويجب منعه!

ورأينا البعض يقتحمون حفلات غنائيّة فيضربون الحاضرين، ويكسرون آلات العزف، ويهدمون المسرح!

حتى أنّ الشّرطة في عصر من العصور اعتبرت أحد أولويات المُنكَر: الزُّمّارات الّتي يلعب بها الصّبيان، فطاردت الصّبيان في الشوارع لتصادرها! (٢٣(

وعام ٢٠٠٣ قرّرت هيئة الأمر بالمعروف في السّعوديّة منع الدّمية (باربي)؛ لأنها تُمثِّل إهانة للقيم الإسلاميّة بملابسها الفاضحة! (٢٤(

رابعًا: هتك حُرمَة الحياة الخاصّة.

البعض اتّخذ مبدأ الأمر بالمعروف ذريعة ليقتحم حياة النّاس، ويفتش عن عوراتهم وزلّاتهم، كأنّه يعايرهم لا ينصحهم !

ويستخدم هذا المبدأ ليمارس دور المدرّس والأبّ والشّيخ، فيقول: أنت لا تعرف شيئًا عن الدّين، أنا أعرف، اتبعني!

وتجده تدخَّل في حياة النّاس الخاصّة كأنّه يديرها نيابة عنهم، لماذا لم تتزوّج؟ لماذا لم تنجب؟ لماذا لم تتحجّب زوجتك؟ لماذا تترك ابنك بحُرّيّته؟ لماذا تعمل في هذا المجال؟ لماذا ترتدين هذه الملابس؟ لماذا تقرأ هذا الكتاب؟

ثالثًا: الإلزام.

انحرف مفهوم إنكار المُنكَر من النصيحة المُهذَّبة إلى الإلزام والإجبار؛ فأبٌ لا يقنع ابنته بالحجاب، بل يجبرها على ارتدائه! ومدير لا ينصح موظّفيه بالصّلاة، بل يحرجهم لأدائها!

رابعًا: حظر حُرّيّة التّعبير.

أكثر المجالات الّتي لا يمكن تصوّر أن يطالها الإلزام: مجال الفكر؛ إذ هو قائم على الاقتناع الذّاتيّ الدّاخليّ، لكن اعتبر البعض أنّ الدعوة للتّنصّر، أو نشر المذهب الشّيعيّ، أو نشر الرأي المخالِف عمومًا، من المُنكَرات، ويجب مصادرة الأفلام/ الكتب /الصُّحُف الّتي تدعو للفكر الخاطيء ومحاسبة كُتّابها!

الضّوابط.

نظرًا لهذه الصّور المُبتذَلة والمُنحرِفة، كان لا بُدّ من وضع شروط للنّهي عن المُنكَر، منها:

أوّلًا: ألّا يؤدي إنكار المُنكَر إلى مُنكَر أكبر منه.

يقول "القرافيّ"(٢٥)، و"ابن رشد"(٢٦(، و"ابن الحاجّ"(٢٧)، و"الدّسوقيّ"(٢٨): «شرط النّهي عن المُنكَر: أن يأمن من أن يؤدّي إنكاره إلى مُنكَر أكبر منه.«

وقد تخصّص علمٌ كامل في الفقه لدراسة المآلات والنّتائج قبل التّطبيق، (فقه المآلات)، وإن ثبت سوء النّتائج والمآلات، توقّف التّطبيق .
وأهمّ الأمثلة على ذلك هو إنكار مُنكَر الحكومات؛ فقديمًا كان إنكار مُنكَر الحكّام الظّالمين يعني الثّورة المُسلَّحة على الحاكم وقتله، وهو ما قد يؤدّي إلى فساد أكبر، لذلك اختلف الفقهاء في حكم الخروج على الحكام.

في الحقيقة، الفقهاء كلّهم اتّفقوا على أنّ ظلم الحاكم ضرر، كما أنّ حمل السّلاح ضرر، والجميع بحثوا عن الأقلّ ضررًا، وهذا بالتأكيد يختلف باختلاف العصر والبلد والحاكم وقدرات المعارضة ووسائل الثّورة، لذا اختلفت مواقفهم، أو بمعنى أدقّ: اتّفقت رؤيتهم واختلف واقعهم .
أما في عصرنا الحالي، فقد باتت الثّورة المُسلَّحة هي ثورة تقاوم الجيش والشّرطة والقضاء ومؤسّسات الدّولة، وهي ثورة تستخدم أسلحة ثقيلة للقتال (طائرات – دبّابات)، فأصبحت كلّ ثورة مُسلَّحة تؤول بالضّرورة إلى انقسام في الجيش، وحرب أهليّة، وخراب للبنية التّحتيّة، وهدم لمؤسّسات الدولة .

وبالتّالي فالثّورة المُسلَّحة اليوم باتت دائمًا وأبدًا ضررها أكبر، لذا نرى عدم جواز الثّورات المُسلّحة حاليًا ألبتّة وإطلاقًا.

وما يباح فقط هو الثّورات السلميّة الّتي تستخدم الاعتراضات الإعلاميّة، والأحزاب المعارِضة، والرّقابة البرلمانيّة، والمظاهرات السلميّة، والإضراب عن العمل، والمقاطعة، والعصيان المدنيّ، بحيث تتناسب الوسيلة مع قدر المُنكَر.

ثانيًا: التّدرّج.

)وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ). [سورة الحجرات – الآية ٩.[

الدّرس المستفاد أنّه لا يجوز التّصعيد إلى وسيلة أعنف إلّا بعد استفراغ الجهد في الوسيلة الأخفّ، فإن بغت طائفة تجب محاولة الصُّلح السّلميّ أوّلًا، وإن لم يُجدِ نفعًا، نُضطرّ إلى التّصعيد.

ويقول "معاوية": «إنّي لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني».(٢٩(

ثالثًا: نصيحة أم إجبار؟

أحد النّقاط المحوريّة في مفهوم الأمر بالمعروف: متى نتدخّل باليد، ومتى نتدخّل باللّسان؟

هنا يجب التفريق بين المُنكَر الّذي يؤثر في الآخرين؛ مثل التّحرّش بامرأة، أو ضرب طفل، أو تخريب المال العام، أو تزوير الانتخابات، فهنا المُنكَر يقع على الغير، ويجب التّدخّل باليد، ومنع المُنكَر بالقوة، متى تمكَّن المرأ، أو على الأقلّ إخطار الشّرطة.

أمّا حين يكون المُنكَر مقتصرًا ضرره على صاحبه، مثل ترك الصّلاة، أو الإفطار في رمضان، أو خلع الحجاب، أو الكفر، فهنا لا يحقّ لأحد التّدخّل بالقوّة، وإنما يقتصر النّهي عن المُنكَر بالنّصيحة المُهذَّبة؛ ومما يثبت ذلك:

قسَّم العلماء الواجبات إلى قسمين :حقوق الله، وحقوق العباد. يقول "القرافيّ": «فحقّ الله أمره ونهيه، وحقّ العبد مصالحه»(٣٠)، ومن هنا كانت العبادات كالصّوم والحجّ هي حقّ الله، أما الزّكاة وحفظ العِرض ورد الدَّين فهي حقوق العباد. هذا التّقسيم جعل العلماء يفرّقون بين الفُتيا والقضاء، فالفُتيا تختصّ بإيضاح حقوق الله، وهي ذاتيّة الالتزام، إذ أنّ طبيعة الدّين الالتزام الذاتيّ، الّذي يحاسَب عليه الإنسان في الآخرة. أمّا القضاء فهو مُختَصّ بحقوق العباد، وهو القسم الّذي تتدخّل فيه الدّولة بسلطة القانون والإجبار؛ لأنّ حقوق العباد لا تُضمن إلا بسلطة تُفرض على النّاس.

يقول "القرافي": «اعلم أنّ العبادات كلّها على الإطلاق لا يدخلها الحكم ألبتّة، بل الفُتيا فقط».(٣١(

ويقول "الغزّاليّ": «معاصي اللّسان والقلب، وكلّ معصية تقتصر على نفس العاصي وجوارحه الباطنة لا يقدر على مباشرة التّغيير بها باليد».(٣٢(

كما أنّ التّدخّل بالقوّة في العبادات والعقائد لا يخلق التزامًا، بل يخلق نفاقًا مقهورًا!

وإن كان الكفر -وهو أُسّ المعاصي- لا يجوز الجبر فيه، فما بالنا بالمعاصي الأقلّ؟

رابعًا: حُرمة الحياة الخاصّة.

يتضح من عدّة مواقف اتّخذها الإسلام أنّه يحترم الخصوصيّة الشّخصيّة، ويجعل لها حرمة وقدسيّة.

منع التّجسُّس:

)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا). [سورة الحجرات – الآية ١٢.[

لاحظ الحزمة الأخلاقيّة الّتي شملتها الآية؛ فقد حفظت للحياة الخاصّة حرمتها على عدة مستويات :

منعت التّجسُّس والتفتيش وتتبع عورات النّاس .

منعت حتّى ذكر حياة النّاس بالمكروه والسّوء، واعتبرت هذه الغيبة من المُنكَرات .

منعت حتّى الظّنّ السّيّء في الآخرين .

وبذلك فالإسلام يرفع أيدي النّاس عن التّدخّل في خصوصيّات غيرهم وحياتهم الشّخصيّة الخاصّة، سواء باليد)التّجسُّس)، أو اللّسان (الغيبة)، أو حتّى الفكر (الظّنّ السّيّء.(

تجريم التّجسُّس:

أباح الإسلام لصاحب البيت أن يفقأ عين من يتجسّس عليه، فقال النّبيّ: «لو أنّ امرؤ اطَّلع عليك بغير إذن، فخذفته بعصاة ففقأت عينه، لم يكن عليك جناح».(٣٣(

الأمر بالسّتر :

حين أخبر "هزَّال" النّبيّ بحادثة زنا، قال له النّبيّ: «لو سترته بثوبك كان خيرًا لك».(٣٤(

وقال: «من ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة».(٣٥(

وقال: «تعافوا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حَدٍ فقد وجب».(٣٦(

ومن هنا ننتقل للسؤال: إن كان (النّهي عن المُنكَر) قيمة أخلاقيّة، كما أنّ (حرمة الحياة الخاصّة) قيمة أخلاقيّة، فكيف نوفِّق بينهما؟

هاتان القيمتان لا تلغي أحدهما الأخرى، بل تضبط كلّ منهما الأخرى، ومن هذه الضّوابط:

اتّفق الفقهاء على أنّ النّهي عن المُنكَر يشترط ظهور المُنكَر؛ فلا يحقّ لأحد البحث عنه والتّفتيش وراءه.

لكلّ مُنكَر طريقة تناسبه للإنكار؛ مثلًا إنكار مُنكَرات الحاكم تتمّ أمام النّاس في صورة معارضة شعبيّة وإعلاميّة، ومطلوب فضح جرائمه أمام الرّأي العام. بينما المُنكَر الّذي يرتكبه شخص في حياته الخاصّة، فالتّشهير به هو جريمة مستقلّة لا تجوز، ويجب أن ينحصر إنكار المُنكَر هنا في صورة نصيحة شخصيّة وودّيّة وسرّيّة.

من ينصح من؟

الواقع يشهد أنّ النّاس لا تتقبّل نصائح من أيّ أحد، لذا يجب أن تتوفّر علاقات شخصيّة تسمح بالنُّصح، فقد تقبل المرأة نصيحة عن ملابسها من امرأة صديقتها، لكن بالطبع لا تقبلها من رجل، أو امرأة لا تعرفها. وقد يقبل الرجل نصيحة في عمله من زميل العمل، ولا يقبلها من رجل خارج تخصُّصه. المُهمّ هو وجود علاقة تسمح بالتّناصح، وإلا ستتحوّل النّصيحة إلى تسلُّط وتدخُّل غير مرغوب فيه.

خامسًا: الفكر لا يُواجَه إلّا بالفكر.

إنكار الأفكار الخاطئة لا معنى له إلّا بالنّقد والتّبيان والبلاغ، وكلّ صورة للتّدخّل القانونيّ أو العنيف أو المُسلَّح ستؤول للحَجْر على الفكر، والإكراه في الدّين، وكبت الحُرّيّات.

وإن كنتَ مخلصًا حقًّا في مواجهة الأفكار المنحرفة والمعتقدات الباطلة، فلترفع كتابًا وأذانًا بين النّاس بالحقّ، ولتُسلِّط الكتب والنّدوات والحوارات والمناظرات على الباطل ليدمغه. بهذا -وهذا فقط- يمكنك اقتلاع الضّلال من الرؤوس.

الأمر بالمعروف اليوم.

إنّ المفاهيم الإسلاميّة كي يكون لها موضع قدم في هذا العصر يجب أن تتّخذ لنفسها مؤسّسات وهيئات منظَّمة وقانونيّة ومعاصرة، فمثلًا البَيْعَة أصبحت انتخابات، وكتابة الدَّين أصبحت مؤسّسة الشّهر العقاريّ للتّوثيق، وأهل الحِلّ والعَقْد أصبحوا البرلمان، كذلك مفهوم الأمر بالمعروف يجب أن يتّخذ صورًا معاصرة وآليّات مؤثِّرة، وهو ما يتمثّل في عصرنا في صورة مؤسّسات العمل الأهليّ، مثل الأحزاب السّياسيّة، والجمعيّات الخيريّة، والأكاديميّات العلميّة، والأُسر الطّلّابيّة، والنّقابات العُمّاليّة.

هل يوجد إعجاز علمي في القرآن؟

بواسطة خالد باطه في 20يوليو ٢٠٢٠

مداخل خاطئة

البعض يجمع أدلة كثيرة لصالح إثبات إعجاز القرآن، ولا يهتم بصحة كل دليل، وإن ثبت خطأ دليل، فلا يهم، المهم هو (كثرة) الأدلة، وطالما الغاية :إثبات صحة القرآن، فهو خير!

"هذا العصر هو عصر العلم، لذلك يجب أن نتخذ الإعجاز العلمي دليلًا معاصرًا لإثبات صحة القرآن!"

نحن لا نتخذ وجه إعجاز القرآن طبقًا للرائج والمؤثر، بل طبقًا لما اعتبره القرآن نفسه معجزًا.

"القرآن لا يحتاج إعجازًا لنؤمن به!"

محمد يحتاج إلى معجزة لنصدِّق أنه رسول الله، ولنؤمن أن القرآن من عند الله. وبدون المعجزة ما ميَّزنا النبي عن مدَّعي النبوة الكذاب.

البعض يكتفي بذكر أمثلة خاطئة على الإعجاز العلمي، فيستدل بذلك على خطأ الإعجاز العلمي كفكرة. هذا خطأ منهجي؛ فربما أخطأ مثال وصحَّت أمثلة أخرى!

نظرًا لتغير العلم عبر العصور، فالبعض يسهل عليه عرض تفسيرات خاطئة لمفسرين قدامى، ثم يهينهم ويرميهم بالجهل! وهو تصرف غير علمي وغير أخلاقي.

"العلم متغير والدين ثابت"! .. ليس كل العلم متغير، ففي العلم حقائق علمية ثابتة يقينية.

لذا ننتقد هنا الإعجاز العلمي من حيث المفهوم والمبادىء الأساسية التي يستند عليها.

ما الإعجاز العلمي ؟

المقصود بالإعجاز العلميّ في القرآن: إخبار القرآن بحقيقةٍ علميّة أثبتها العلم الطّبيعيّ فيما بعد، وثبت عدم إمكانيّة إدراكها بالوسائل البشريّة في زمن النّبي، ما يُثبت أنّ القرآن وحي من عند الله.

ومن أمثلتهِ:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ سورة الأنعام (الآية: ١٢٥(، فبعد تمكّن الإنسان من بلوغ السّماء بالطّيران عرف أنّه كلّما ارتفع إلى أعلى قلَّ الأوكسجين والضّغط الجويّ، ما يسبّب ضيقًا في الصّدر وعمليّة التّنفس مثلما ذكر القرآن.

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ سورة النحل)الآية: ١٥(، الوتد يُغرَس في الرّمال لتثبيت الخيمة وهكذا الجبال تقوم بدور الوتد؛ فقد اخترقت بامتداداتها الطّبقة اللّزجة التّي تقعُ أسفل الطّبقة الصّخريّة التّي تكّون القارات، فأصبحت بالنسبة للقارّات كالوتد للخيمة من حيث التّثبيت.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ سورة المؤمنون (الآيات(14-12 :، وقد أثبت العلم الحديث مراحل تكوّن الجنين وتبيّن أنّها مطابقة للآيات.

النّقد

إنّ عنوان (الإعجاز العلمي في القرآن) يستوجب تحليل طبيعة المعجزة وطبيعة العلم الطبيعي وطبيعة النّص القرآنيّ لنعرف في النّهاية هل يمكن الجمع بين هذه الأطراف الثلاثة أم لا ؟

أولًا: طبيعة المعجزة:

يُعرِّف علماء الكلام المعجزة على أنّها أمرٌ خارقٌ للعادة، مقرونٌ بالتحديّ، سالمٌ عن المعارضة.

الشرط الأوّل: هل الإعجاز العلميّ خارقٌ للعادة؟

إن قال محمد -صلى الله عليه وسلم- حقيقة علمية، دون توفّر الأدوات اللّازمة لرصدها في عصره، ثم تبيّن صحّتها بعد توفر أدوات البحث، فهو أمرٌ خارقٌ للعادة، وكافٍ لإثبات نبوته.

الشرط الثّاني: هل اقترن الإعجاز العلميّ بالتحديّ ؟

تحدّى القرآن العرب أن يأتوا بمثله، ونتوقف عند (ما المقصود بمثله ؟) هل محل التّحدي أن يأتوا بمعانٍ عظيمة مثله ؟ بلاغة مثله ؟ حقائق علميّة مثله ؟

لم ينصّ القرآن الكريم على وجه التّحدي، لكن معلوم من حال العرب أنهم كانوا أهل بلاغة وفصاحة وبيان، ومعلوم أن القرآن كتاب عربي مبين، ومن هنا علمنا بالضرورة أن وجه التحدي هو البلاغة والبيان.

المسألة أشبه بمهندس دخل كلية هندسية، ومعه جهاز هندسي، وتحدى المهندسين أن يأتوا بجهاز مثله، فالكل يعلم بالضرورة أن وجه التحدي هنا هو التفوق الهندسي.

إذًا فوجه التحدي في القرآن هو التفوق البياني، والعرب تعرف جيدًا معايير التفوق البياني للنصوص.

كما تنبأ القرآن بأحداث مستقبلية، مثل: ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾، وجه التحدي هنا: إن انتصرت الروم بعد هزيمتهم في بضع سنين، يثبت صدق القرآن، وإن لم يحدث، ثبت كذب القرآن.

أما عن الإعجاز العلمي، فلم يقل القرآن لا تصريحًا ولا تلميحًا أنه تحدى البشر في ذكر حقائق علمية.

ولم يكن العرب أهل علم طبيعي، وتحدِّي غير النابغ لا يثبت تفوقًا ولا إعجازًا. فلك أن تتخيل عالم فيزياء يتحدى شاعرًا في الفيزياء، فالتحدي هنا لا يثبت تفوق العالم!

وحتى لو قلنا: تحدى القرآن الأجيال اللاحقة، فكي نقول ذلك، يجب أن ينص القرآن على حقائق علمية بشكل صريح وواضح ودقيق، ويتحدى البشر أن يقيسوا هذه الظاهرة متى تمكنوا ليجدوها بالضبط كما رصدها القرآن.

ولو توفر هذا الشرط لاستطاع المسلمون استخراج حقيقة علمية صريحة وواضحة ودقيقة من القرآن، وتبنوها دون قياسات أو تجارب، مستندين

ومراهنين ومتحدين فقط بنص القرآن، ثم تأتي القياسات العلمية لتكون مطابقة لهذه الحقيقة. وهو ما لم يحدث قط؛ لأن (كل) أمثلة الإعجاز العلمي تظهر بعد الاكتشافات العلمية، لا قبلها، إذن أين التحدي؟!

يقول القرضاوي: "لا بد أن يسبق الإعجاز تحدٍّ واضح، ودعوة إلى المعارضة بمثل ما يُتحدى به، وأن تتوفر الدواعي إلى قبول التحدي، وتنتفي الموانع عن المعارضة، ثم يعجز المعارضون جميعًا. وفي الإعجاز العلمي لم يحدث هذا التحدي"(١.(

ويقول طه العلواني:"لو أن أحدكم قال: يا علماء، هذه النظرية استنبطتها من القرآن، وأتيت بها منه، ودخلت المختبر وتأكدت من صحتها، وأتحداكم أن تقدموا لي ما هو خير منها، فهذا تحدٍّ وإعجاز"(٢.(

الشرط الثالث: هل سَلِمَ الإعجاز العلمي عن المعارضة؟

هذا الشرط يعني عجز البشر عن معارضة المعجزة، وكي نثبت ذلك أو ننفيه يجب أن تكون المعجزة حاسمة وقاطعة بحيث تكون قابلة أصلًا للاختبار.

وهنا يظهر فرق جوهري بين نبوءة الدجال الوهمية، ونبوءة النبي الصادقة؛ فالدجال يتنبأ بحدث فضفاض، وحمَّال معانٍ متعددة، مثل:"سيحدث لك شيء سعيد"، "سينتصر صاحب الحق"، فهذه نبوءات غير دقيقة، وغير محسومة، لن تستطيع اختبارها، وبالتالي لن تستطيع تكذيبها ولا تصديقها.

أما نبوءات الأنبياء فيجب أن تكون دقيقة وحاسمة، مثل نبوءة القرآن بانتصار الروم في بضع سنين، فإن مر أكثر من عشر سنوات دون انتصار الروم لثبت كذب القرآن.

أما عن الإعجاز العلمي فكل أمثلته هي آيات لها معنى استقر عند جيل الصحابة والتابعين وتابعي التابعين وقرون بعدهم، ثم أُضيف إليه معنى جديد بعد الاكتشاف العلمي المربوط به، لذا فـ(كل) أمثلة الإعجاز العلمي تحتمل أكثر من معنى، فإن ثبت البحث العلمي، أوَّلوا النص ليوافقه، وإن لم يثبت، أرجعوا النص للمعنى القديم الذي فهمه العرب الأوائل!

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾، إن ثبت أن الأكسجين يقل كلما ارتفعنا عن سطح الأرض، اعتبرنا التشبيه في الآية بمن يرتفع عن سطح الأرض. وإن ثبت خلاف ذلك رجعنا لتفسير كل المفسرين القدامى بأن التشبيه بمن يحاول الصعود إلى السماء بلا وسيلة، وهو تشبيه بأمر مستحيل للدلالة على التكلُّف والضيق النفسي، لذلك استخدم لفظ (يصعَّد) وليس)يصعد.(

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾، فإن ثبت أن الحديد لا ينتمي لمكونات الأرض ويجب نزوله من السماء، اعتبرنا قوله (أنزلنا) على الحقيقة؛ أي أن الحديد نزل من السماء. وإن لم يثبت ذلك، رجعنا لتفسير كل المفسرين القدامى بأن (أنزلنا (لا تفيد النزول الحقيقي، بل هو تعبير عن العطاء الإلهي، وقد كرره القرآن مع أغلب النعم الإلهية، ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾، ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ ﴾.

وبالتالي فالإعجاز العلمي في القرآن غير قابل للاختبار.

ثانيًا: طبيعة العلم الطبيعي

.1منظور العلم

يمكن تعريف الشيء بطريقتين مختلفتين:

–التعريف بالماهية: وهو تعريف يقتضي معرفة ماهية الشيء وتركيبه ومواده.

–التعريف بالصفات: وهو تعريف يكتفي بالوصف الظاهري المشاهَد.

مثلًا: ما المياه؟

التعريف بالماهية: هي مادة كيميائية تتكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين.

التعريف بالصفات: هي سائل شفاف، عديم اللون والطعم والرائحة، يروي الظمأ.

العلم الطبيعي يتخصص في التعريف بالماهية؛ أي يدرس ماهية الأشياء وتركيبها وموادها، لذلك ينظر للماء باعتبارهاH_2O ، وينظر للسماء باعتبارها طبقات الغلاف الجوي التي تحيط بالأرض.

.2سؤال العلم

يستخدم العلم التعمق في ماهية الأشياء ليجيب عن سؤال: كيف؟ وهو السؤال الذي يدور حوله العلم الطبيعي كله. كيف يدور القمر؟ كيف ينشأ الجنين؟ كيف ينمو النبات؟

.3منهج العلم

منهجية العلم الطبيعي قائمة على الملاحظة، ثم وضع فرضيات قادرة على تفسير هذه الملاحظات، ثم اختبار هذه الفرضيات للتحقق من الفرضية الصحيحة، ثم اختبار الفرضية الصحيحة باختبار قدرتها على التنبؤ بالأحداث، وإن استطاعت الفرضية تفسير الظواهر الملاحَظة، وتنبأت بأحداث تم رصدها، أصبحت نظرية علمية موثوق بها.

لا نقول: لا نستطيع نحن البشر استكشاف حقيقة علمية جديدة إلا بهذه الطريقة، بل لا نستطيع حتى فهم نظرية علمية إلا بهذه الطريقة، فحتى لو أخبرنا الله، أو نبي، أو كائنات أخرى بالنتيجة النهائية، لما فهمناها!

مثلًا إن سألنا نبيًا عن الهلال كيف ينشأ؟ فلن نفهم السبب النهائي إلا بعد أن يشرح لنا شكل الأرض، وشكل الشمس، وشكل القمر، وطريقة دوران القمر حول الأرض، ودوران الأرض حول نفسها، ودوران الأرض والقمر حول الشمس. وكل إجابة نهائية دون هذا التسلسل العلمي، فهي غير مفهومة، وبلا معنى بالنسبة لنا.

وبالتالي فالعلم لا يمكن أن يقوم على الإخبار، بل يقوم على الملاحظة والتجربة والاختبار.

.4النص العلمي

لأن العلم الطبيعي قوامه وأساسه الدقة، لذا فهو يستخدم لغة واصطلاحات دقيقة ومحددة وحاسمة، وكثيرًا ما يعبِّر عن نظرياته في صورة معادلات رياضية دقيقة وحاسمة.

ثالثًا: طبيعة النص القرآني

.1منظور القرآن

القرآن هو النص المؤسِّس للدين، لذا فأول اهتماماته هو الإشارة إلى الغيب والقيم الأخلاقية (الله – الحساب – الأخلاق – الجنة – النار)، وكي يحقق القرآن مقاصده الأخلاقية والدينية استخدم الكون المنظور ليرصد ظواهر واقعية وعوالم حسية ليستشهد بها على وجود الخالق، وعظمة قدرته، ودقة تقديره، لذلك أشار إلى الشمس، والنجوم، والقمر، والجبال، والبحار، والنبات، والحيوان، والجنين، والرياح، والمطر.

وكي يحقق القرآن هذا المقصد فهو لم يلتفت إطلاقًا إلى تعريف الأشياء بالماهية، فلا يعنيه المواد التي يتركب منها الشيء، ولا كيف تعمل الأشياء، بل اعتنى برصد الصفات الظاهرية للأشياء.

مثلًا ذكر القرآن النجوم في أكثر من موضع، لكنه لم يشر إطلاقًا إلى ماهيتها، ولا نشأتها، ولا تكوينها، بل أشار إلى صفاتها الظاهرة للعيان :إضاءة النجوم، مواقعها المتميزة، الاهتداء بالنجوم، فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾، ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾، ليستدل بذلك على أن وراء هذه الخِلقة خالق حكيم وقادر.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾، هذا النص يشرح بوضوح تام ما نقصده؛ فالسؤال عن الأهلة يحتمل السؤال عن ماهيتها وكيفية تكوينها، لكن القرآن لم يتطرق لهذا الجانب إطلاقًا. وكما قلنا لا يمكن للقرآن أن يجيب عن الأسباب العلمية لتكوين الأهلة بالأسلوب الخبري النهائي؛ لأن البشر لن تفهمه إلا بعد أن تعرف دوران الأرض والقمر والشمس أولًا. لذلك اكتفى القرآن بالحديث عن أهمية الأهلة في حياتنا، وتوظيفها للتوقيت، وتحديد العبادات.

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾، يعتقد البعض أن في الآية خطأ علميًا؛ فكيف يعبّر عن الشمس بأنها تسقط في المياه، والشمس أكبر حجمًا من الأرض؟!

لكن التعبير عن الشمس هنا لا يعني التعبير عن ماهية الشمس كنجم، بل قصد الشكل الخارجي الظاهري للشمس كقرص دائري منير يظهر للعيان كأنه يسقط في المياه.

﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾، ثار خلاف حول هذه الآية؛ فاعتبرها البعض دليلًا على خطأ القرآن؛ لأن دحاها: بسطها، وبذلك فالقرآن يقر أن الأرض مسطحة!

وفي المقابل رد آخرون بأن الآية تدل على كروية الأرض؛ لأن دحاها: أي بسطها كبيضة النعامة، أي أن الأرض بيضاوية!

جاء في لسان العرب: "الدحو: البسط. دحا الأرض يدحوها دحوًا: بسطها"(٣).

ويقول الزمخشري: "معنى (دحاها): بسطها ومهّدها للسكنى"(٤).

ويقول الطبري: "الدحو إنما هو البسط في كلام العرب"(٥).

إذن فمعنى دحاها: أي بسطها. والقرآن يقول صراحة: إن الأرض مسطحة، ومستوية، ومبسوطة. فقال تعالى: ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾، ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾. لكن السؤال الأهم: ما المقصود بالأرض في القرآن؟

كما قلنا: القرآن لا يشير لماهية الأشياء، وإنما يشير للصفات الظاهرة للعيان، وبالتالي لا يشير للأرض باعتبارها كوكبًا كرويًا، يدور حول نفسه، ويدور حول الشمس، ويسبح في مجرة درب التبانة. بل يشير للأرض باعتبارها هذا السطح الذي نقف عليه، ونزرعه، ونبني فوقه، ونسير عليه، وهو بالفعل مسطّح ومستوٍ ومبسوط أمام أعيننا، وفي هذا البسط مِنّة من الله مكّنت البشر من السكن والسفر والزراعة.

﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾، هنا النص لا يرصد الجبال من حيث ماهيتها، فلا هو تحدث عن نشأتها، ولا تكوينها، ولا وظيفتها، ولا موادها، ولا عمقها، هو فقط يشير لحقيقة تستحق التأمل: ثبات الجبال كالوتد، ليستدل بها على عظمة قدرة الخالق.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ *ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾.

اعتبر البعض أن في الآية إعجازًا علميًا؛ لأنها أشارت لمراحل تكون الجنين تفصيلًا، ثم ثبتت صحته!

واعتبر آخرون أن في الآية خطأ علميًا؛ لأنها اعتبرت تكوين العظام آخر مرحلة، لكن ثبت أن العظام تتكون بالتوازي مع أعضاء الجنين!

لا يشرح النص القرآني هنا خطوات تكوين الجنين العلمية، فلم يحدِّثنا عن كيفية تكوين الحيوانات المنوية، ولا حتى تركيبها، ولا السائل المنوي ومكوناته، ولا البويضة ومنشئها وتركيبها، ولا طريقة اختراق الحيوان المنوي للبويضة، ولا طريقة انقسام البويضة، ولا كيفية اختلاف جنس الجنين، ولا كيفية تغذية الجنين، ولا مدد تكوّن أعضاء الجنين، ولا طريقة تكون الأعضاء، لم يحدِّثنا القرآن عن أيٍ من ذلك، ولم يشر لمعنى جديد غائب حتى نقول إنه سبق العلم.

بل هو يشير إلى مستوى مختلف تمامًا، فيقول: انظر لحال الإنسان كيف بدأ؟ كانت بدايته من الطين الذي يتأفف منه، ثم خرج من الرجل مجرد قطرة (نطفة)، وتحولت إلى قطعة من الدم (علقة)، ثم تحولت إلى قطعة لحمة صغيرة، من صغرها وضعفها كأنها تُمضغ (مضغة)، ثم اكتست هذه القطعة الضعيفة بقشرة من العظام تحفظ لها تماسكها وقوامها، ثم انتقل هذا الكائن الضعيف الهزيل إلى إنسان ذي بنيان متماسك مستغنٍ ومستقوٍ، ثم يأتي يوم ينهار فيه هذا البنيان فيموت ويتحلل، ثم يعيد الله الحياة في هذا الجسم الهامد.

هذا هو أصل الإنسان: طين بسيط، وقطرة تافهة، وقطعة لحم هزيلة، فبأي شيء يغتر؟! وبماذا يستغني؟! وهذا هو مصيره المحتوم: قبر، ثم بعث. هذه هي جنبات الحياة الإنسانية، والله محيط بها وقيوم بكل همساتها ولمساتها، فليعلم الإنسان أن كل ذرة في هذا الجسد وجب عليها الشكر والسجود لخالقها وواهبها الحياة، ولا حول ولا قوة للإنسان إلا بالله.

إذن فلم يشر القرآن إلى حقائق علمية غائبة، بل أشار لأوصاف ظاهرة للعيان لتفيد معنى ديني؛ وهو شكر المولى.

.2سؤال القرآن

القرآن، والدين عمومًا، يجيب عن السؤال الأعم والأكبر: لماذا؟ لماذا خلق الله الإنسان والكون؟ لماذا خلق النجوم والشمس؟ لماذا أنزل المطر؟

والإجابة الأعم: الله يمُنُّ علينا أن وهبنا كل هذه النعم.

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

.3منهجية القرآن في الحديث عن العلم

لم يتخذ القرآن طريقة إملاء النظريات العلمية، بل اتخذ طريقًا آخرًا من أجل الإشارة إلى العلم الطبيعي وهو استفزاز العقل البشري وإشعال فضوله ليبحث هو عن قوانين الطبيعة، ويكشف النقاب عن انتظام الكون، ويفتش في الأرض عن آيات الله في الخلق.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾، كيف؟ لماذا الماء؟ ما علاقة الماء بالحياة؟ هذا ما يتشوق العقل ليعرفه، فليبحث العقل إذًا..

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾. حقًا، طالما أن الماء واحد والأرض واحدة، لماذا تختلف الفاكهة كل هذه الاختلافات في الطعوم والألوان؟! فليسبح العقل هنا.

وأحيانًا يأمر صراحةً بالبحث العلمي، فيقول: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾.

يقول البوطي: "القرآن لم يفصِّل القول في القوانين العلمية المتعلقة بالمحسوسات والمشاهدات، إذ إنه لو فعل ذلك لألزم الناس إذن بالإيمان بمقتضاها، فيكون ذلك حملًا للعقول على تبني حقائق علمية دون السلوك إليها في سبيل براهينها المنسجمة معها، وهي التجربة والمشاهدة"(٦.(

ويقول محمود شلتوت: "ما تضمنه القرآن من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر، ليزداد الناس إيمانًا مع إيمانهم"(٧.(

.4النص القرآني

أسلوب النص القرآني

لأن القرآن نص معجز في بلاغته، ولأن مادة البلاغة وأداتها المجاز والكناية والاستعارة، لذا فهو لا يستهدف الدقة العلمية أو القانونية، بل يستهدف البيان والإمتاع.

كما أن غرض القرآن هو التأثير في النفوس وإيقاظ الضمائر، فالأسلوب الأنسب هو أسلوب المجاز وضرب الأمثال.

وهو كما ترى أسلوب مختلف تمامًا عن أسلوب النصوص العلمية، ما يجعل مقارنة نص قرآني بنص علمي، ومحاولة تطابقهما هو غاية في التكلُّف والصعوبة، ولذلك أغلب أمثلة الإعجاز العلمي هي تأويلات متكلفة ومفتعلة.

هل يمكن أن يقصد النص الواحد أكثر من معنى؟

يقول البعض: القرآن لم يتحدَّ العرب بحقائق علمية، لكنه أشار لمعنيين، معنى فهمه العرب وقت التنزيل، ومعنى آخر يفهمه من يأتي بعدهم، وبذلك فمقاصد النص القرآني متعددة ومتغيرة عبر الزمن، فلكل عصر فهم وتفسير للقرآن!

يمكن للفظ الواحد أن يفيد أكثر من معنى في نفس الوقت، وهو ما يطلق عليه في اللغة: (المشترك)، مثلًا يطلق العرب لفظ (العين) على جارحة العين، والذهب، وأشراف القوم، والبئر. والقاعدة هنا: "المشترك لا يَعُم"؛ أي اللفظ المشترك الذي يشير إلى معانٍ كثيرة، استخدامه في جملة يشير إلى معنى واحد من معانيه، ولا يعمها كلها. مثلًا إن ترك رجل بئرًا وذهبًا، وقال لابنه قبل الوفاة: "العين لك"، فهل يعني ذلك أن يأخذ الابن البئر والذهب معًا؟ لا، بل الأب يقصد إما البئر أو الذهب، ولا يقصدهما معًا.

ويمكن أن يعني اللفظ الواحد أكثر من معنى في عصرين مختلفين؛ مثل لفظ)الذرة)، قديمًا كان يعني أي جرم صغير، أما في عصرنا الحالي فهو يعني Atom؛ الجسم المكون من نواة وإلكترونات. لذا لفهم أي نص يجب الرجوع لمعنى اللفظ في عصره، ولا يمكن أن يشمل كلا المعنيين معًا.

فهم القرآن الحالي هو فقط الصحيح؟!

يقول البعض: النص القرآني له معنى واحد، وهو المعنى الذي نفهمه الآن، أما فهم العرب الأوائل فهو فهم قاصر نتاج قلة علمهم!

من شروط بلاغة النص وبيانه أن يراعي مقتضى حال المخاطَبين، فيستخدم مصطلحاتهم وأمثالهم ومفاهيمهم لإيصال المعنى طبقًا لمستوى معرفتهم.

والقرآن الكريم معجز في بيانه وبلاغته؛ لأنه بيَّن معانيه وأبدع في بلاغته على أكمل وجه. أما ادعاء أن العرب (كلهم) لم يفهموا قصد نص قرآني فهو قدح في بلاغة القرآن! وهو قدح في النبي أيضًا؛ لأنه إما لم يفهم معنى القرآن وبلَّغه دون فهم، أو فهم معناه ولم يبلِّغ الناس، فقصَّر في البلاغ!

يقول الطبري:" تأويل كتاب الله غير جائز صرفه إلا إلى الأغلب من كلام العرب الذين نزل بلسانهم القرآن، المعروف فيهم، دون الأنكر الذي لا تتعارفه، إلا أن يقوم بخلاف ذلك حجة يجب التسليم لها"(٨.(

ويقول طه حسين:"أؤثر دائمًا أن أقبل النص وأفهمه كما قبله وفهمه المسلمون الأولون حين تلاه عليهم النبي"(٩.(

ويقول د.مصطفى الحسن:"القرآن استعمل الكلمات التي يستعملها العرب في ذلك الزمن، وهذا يعني أن لكل كلمة (بصمة نفسية)، مثلًا حين يقول الله عن العلاقة به:﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾، فالحب كمفهوم هو في داخل جهازهم المفاهيمي، فجاء القرآن واستعمل اللفظة نفسها، وحتى أعرف معنى هذه الكلمة، لابد أن أكتشف جهازهم المفاهيمي، وهذا ما يجعلني أذهب إلى نصوص العرب وشعرهم وأمثالهم في الجاهلية وخطبهم حتى أفهم مراد القرآن حين قال:﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾، كذلك حين قال:﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾، ماذا كان يعني العدل بالنسبة إليهم؟"(١٠.(

إذًا فمعنى النص القرآني هو المعنى الذي قصده وقت التنزيل وفهمه العرب وقت التنزيل، وللنص الواحد معنى واحد. قد يتطور الزمان ونستغرق بعمق أكبر في مقصود النص، وإسقاطاته، وفلسفته، وحكمة تشريعاته، وقد تتجدد تطبيقات النص، لكن يظل المعنى ثابتًا؛ لأن هذه هي طبيعة اللغة.

النتائج:

–شرط المعجزة: التحدي، والقرآن لم يتحدَ أحدًا أن يأتي بحقائق علمية مثله.

–شرط المعجزة: السلامة من المعارضة، وأمثلة الإعجاز العلمي غير قابلة للاختبار.

–يختلف منظور القرآن عن منظور العلم الطبيعي؛ فالعلم ينظر إلى ماهية الأشياء، والقرآن ينظر إلى الصفات الظاهرة للأشياء. وبذلك فهما يتحركان في مستويين مختلفين.

–القرآن يجيب عن سؤال: لماذا؟، والعلم يجيب عن سؤال: كيف؟

–منهج العلم في رصد الطبيعة: المشاهدة والتجربة والاختبار. ومنهج القرآن في رصد الطبيعة: التحريض على التأمل والبحث بالمنهجية العلمية.

–النص العلمي يستهدف الدقة، بينما النص القرآني يستهدف التأثير والإمتاع البلاغي. فلا يمكن مقارنتهما فضًلا عن تطابقهما.

وبالتالي لا معنى لقول: القرآن سَبَقَ العلم، أو القرآن خَالَفَ العلم.

وقد أنكر الإعجاز العلمي في القرآن: الشاطبي، وأمين الخولي، ومحمود شلتوت، والمراغي، وعبد الحليم محمود، وسيد قطب، وعائشة عبد الرحمن، ومحمد حسين الذهبي.

هل تعمُّد المشقة عبادة؟

بواسطة خالد باظه في 27أغسطس ٢٠٢٠

فَهِم البعضُ أن غاية العبادة هي إجهاد العبد، لذلك كلما زدنا المشقة زاد الثواب، واستدلوا بقول النبي لعائشة: "أجرُكِ على قدر نصبكِ -أي تعبك-"(١(، وحين أراد بنو سلمة الانتقال جوار المسجد النبوي نهاهم النبي وقال لهم" :إن لكم بكل خطوة درجة"(٢)، وكان النبي تتورم قدماه من العبادة، ولا يخفى على أحدٍ عبادة الصالحين وما بها من مشقة.

وقال لي أحد الشيوخ أنه يتوضأ بماء بارد في الشتاء مع توفرِ الماء الساخن، ويذهب لأبعد مسجد بدلًا من المجاور طمعًا في زيادة الأجر، وحين يُخَيَّر بين الأيسر والأصعب يختار الأصعبَ طمعًا في الثواب الأكبر، ويقلل من استهلاكه للرخص!

مبدئيًا لا شك أن ما يلقاه المرء من مشاقٍ ومتاعبَ في طريق العبادة وعمل الخير عمومًا بحيث تكون ملاصقة للعمل يُثاب عليها، وهو صريح واضح في قوله تعالى: "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ."

لكن محل البحث: هل المشقة مقصودة لذاتها، ومن ثم علينا أن نتعمد المشقة ونجهد أنفسنا ما استطعنا؟

هل المشقة مقصودة لذاتها؟

لا شك أن امتثال الأوامر الإلهية والطاعات يشوبه بعض المشقة، لكن هذه المشقة ليست مقصودةً لذاتها؛ إذ لا فائدة من تعمُّد المشقة، وإنما هي لاحقةٌ بالعمل، وقدر المشقة هنا هو القدر المعتاد، أما إن زادت عن العادة تتدخل الرخص الشرعية.

وقد راعى الشارعُ -سبحانه وتعالى- ألا تزيد مشقةُ العبادات عن المعتاد وتصبح حرجًا وعنتًا، وهو مراده من قوله تعالى: "وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ"، لذلك رخَّص القعود في الصلاة، والاضطجاع إن وجد المصلي مشقة، ورخَّص الإفطارَ في رمضان في السفر والمرض: "وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ"، والسبب" :يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ."

يقول العز بن عبد السلام: "قد عَلِمْنا من موارد الشرع ومصادره أن مطلوبَ الشرع إنما هو مصالحُ العباد في دينهم ودنياهم، وليست المشقةُ مصلحة، بل الأمر بما يستلزم المشقةَ بمثابة أمر الطبيبِ المريضَ باستعمال الدواءِ المرِّ البشع، فإنه ليس غرضُه إلا الشفاء، ولو قال قائل: كان غرض الطبيب أن يوجده مشقة ألمِ مرارةِ الدواء لما حَسُن ذلك فيمن يقصد الإصلاح"(٣.(

ويقول البوطي: "المقصود من شرع الحكم هو تحقيق مصالح العباد المتمثلة في المقاصد الخمسة، وما يراه المكلفُ من مشقةٍ لدى القيام به إنما هو في حكم الوسيلةِ إلى تلك المصالح، أي أن الله شاء أن تكون الوسيلة إلى تحقيقِ أحكامِه بذلَ شيءٍ من الجهد لحكمةٍ أرادها"(٤.(

النبي ينهى عن تعمُّد المشقة

جاء ثلاثةُ رجالٍ إلى بيوت أزواج النبي يسألون عن عبادة النبي، فلما أُخبِروا كأنهم تقالوها؛ فقالوا: وأين نحن من النبي؟ قد غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر :أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا.

فجاء رسول الله إليهم، فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"(٥.(

كما رأى النبي رجلًا قائمًا في الشمس، فقال: ما بال هذا؟ فقالوا: نذر أن لا يستظل، ولا يتكلم، ولا يجلس، وأن يصوم، فقال رسول الله: "مروه فليتكلم، وليجلس، وليستظل، وليتم صيامه"(٦).

وحين خرج رسول الله عامَ الفتح إلى مكة في رمضان، صام حتى بلغ كراع الغميم، فصام الناس، فقيل له: إن الناس قد شق عليهم الصيام، وإنما ينظرون فيما فعلت، فدعا بقدح من ماءٍ فرفعه حتى نظر الناس إليه، ثم شرب.

فقيل له بعد ذلك: إن بعض الناس قد صام، فقال: "أولئك العصاة، أولئك العصاة"(٧).

هل أَمَرَ النبي بتعمد المشقة؟

أولًا: بخصوص قول النبي لعائشة: "المثوبة على قدر نصبكِ -أي: تعبكِ"-، فقد قال الراوي: قال النبي: "المثوبة على قدر نصبكِ، أو قال: نفقتكِ"(٨)، وبالتالي فالفقرة التي هي محل الاستدلال مشكوك فيها من قِبل الراوي.

فلو قال النبي: "على قدر نفقتكِ"، فعِلَّةُ زيادةِ الثواب هنا أنه كلما زادت النفقة زادت المصلحة المحقَّقة.

وحتى لو قال النبي: "قدركِ على قدر نصبكِ"، فيقول البوطي: "المشقة التي تستلزم العبادة يتفاوت الأجر عليها حسب تفاوتها شدة وضعفًا، لا من حيث كونها مشقة، بل من حيث توقف الطاعة عليها، فأجر العبادة ثابتٌ أصالة، وأجر المشقة ثابتٌ تبعًا، وهو ما قصده النووي في شرحه للحديث إذ قال: "الثواب والفضل في العبادة يكثر بكثرة النَّصَب والنفقة، والمراد بالنَّصَب: الذي لا يذمه الشرع"، وأقول: النَّصَب الذي لا يذمه الشرع هو ما كان وسيلةً غيرَ متكلفٍ بها إلى عبادة مشروعة، فلو اصطنعَ المشقةَ اصطناعًا للقيام ببعض الطاعات لم يُثَبْ عليها، بل ربما أُخِذَ بسببها"(٩).

ثانيًا: بخصوص حديث النبي لبني سلمة، حين قالوا: كانت ديارُنا نائيةً عن المسجد؛ فأردنا أن نبيعَ بيوتنا فنقترب من المسجد، فنهانا رسول الله فقال: "إن لكم بكل خطوة درجة"(١٠).

يشرح الشاطبيُّ علةَ هذا النهي ويقول: "إن هذا الحديث لا دليلَ فيه على قصد نفس المشقة، فقد جاء في البخاري ما يفسره، فإنه زاد فيه: "وكره أن تُعَرَّى المدينةُ قِبَلَ ذلك؛ لئلا تخلو ناحيتهم من حراستها"(١١).

قدر العمل على قدر المصلحة لا المشقة.

من الملاحظ على البعض اختيارُه لأكثر الأعمال مشقةً وجهدًا؛ طمعًا في الثواب الأكبر! لكن مَن قال إن العملَ الأشقَّ ثوابُه أكبر؟!

معلومٌ أن الطاعاتِ المختلفةَ ليست على درجةٍ واحدة، فتختلف أهميتها، فعلى أيّ أساسٍ تتفاوت؟

يقول العز بن عبد السلام: "المصالح والمفاسد في رتبٍ متفاوتة، وعلى رتب المصالح تترتب الفضائل في الدنيا والأجور في العقبى، وعلى رتب المفاسد تترتب الصغائرُ والكبائرُ وعقوباتُ الدنيا والآخرة"(١٢).

ويقول الشاطبي: "المفهوم من وَضْعِ الشارع أن الطاعةَ أو المعصيةَ تَعْظُم بحسب عِظَمِ المصلحة أو المفسدة الناشئة عنها"(١٣).

ولذلك قد ثبت من عدة طرقٍ أنه رُبَّ طاعةٍ غيرِ مجهدةٍ ذات مصلحةٍ أكبر تورّث ثوابًا أكبرَ من طاعةٍ مجهِدة، فقال النبي: "الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة، أفضلها: قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق"(١٤)، فرغم أن رفعَ الأذى مجهدٌ أكثر من تحريك اللسان بالشهادة، إلا أن الإيمان بالله وتوحيده أعظم.

هل يجوز التقرب لله بتعمد المشقة؟

لو كانت المشقة مقصودةً لذاتها لكان للمرء أن يخترعَ عباداتٍ وطاعاتٍ من نفسه للدلالة على القدرة على التحمل، إلا أنه قد أجمع العلماء على أن الله لا يُعْبَد إلا بما شرَّع.

يقول العز بن عبد السلام: "لا يصح التقربُ بالمشاق؛ لأن القُرَبَ كلها تعظيمٌ للرب سبحانه وتعالى، وليس عينُ المشاق تعظيمًا ولا توقيرًا"(١٥).

ويقول الشاطبي: "إذا كان قصدُ المكلَّف إيقاعَ المشقة فقد خالفَ قصْدَ الشارع، من حيث إن الشارع لا يقصدُ بالتكليف نفسَ المشقة، وكلُّ قَصْدٍ يخالف قَصْدَ الشارع باطل؛ فالقصد إلى المشقة باطل"(١٦).

هل ترك الرخص يزيد الثواب؟

يجب أن نسأل أولًا: لماذا شرَّع الله الرخص ورفع الحرج عن المكلَّفين؟

يقول الشاطبي: "اعلم أن الحرجَ مرفوعٌ عن المكلَّف لوجهين:

–أحدهما: الخوف من الانقطاع في الطريق، وبُغض العبادة، وكراهة التكليف، وينتظم تحت هذا المعنى الخوف من إدخال الفساد عليه في جسمه أو عقله أو ماله أو حاله.

–والثاني: خوف التقصير عند مزاحمة الوظائف المتعلقة بالعبد المختلفة الأنواع، مثل قيامه على أهله وولده، إلى تكاليفَ أُخَرَ تأتي في الطريق، فربما كان التوغل في بعض الأعمال شاغلًا عنها، وقاطعًا بالمكلف دونها، وربما أراد الحمل للطرفين على المبالغة في الاستقصاء فانقطع عنهما.

فأما الأول: فإن الله وضع هذه الشرعة المباركة حنيفيَّةً سمحةً سهلة، حفظ فيها على الخلق قلوبهم، وحبَّبها لهم بذلك، فلو عملوا على خلاف السماح والسهولة لدخل عليهم فيما كُلِّفوا به ما لا تخلص به أعمالهم، ألا ترى إلى قوله تعالى: "وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ"، فقد أخبرت الآية أن الله حبَّب إلينا الإيمان بتيسيره وتسهيله، وزيَّنه في قلوبنا بذلك، وبالوعد الصادق بالجزاء عليه.

وفي الحديث: "عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا"(١٧).

وفي حديث قيام رمضان: "فإنه لم يخف عليَّ شأنُكم، ولكن خشيت أن تُفْرَض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها"(١٨).

وحين دخل النبيُّ المسجدَ وحبلٌ ممدودٌ بين ساريتين، فقال: ما هذا؟ قالوا :حبلٌ لزينب، تصلي، فإذا كسلت أو فترت أمسكت به، فقال: "حلوه، ليصلِّ أحدكم نشاطه، فإذا كسل أو فتر، قعد"(١٩).

وحاصل هذا كله أن النهيَ عن الحرج لعلةٍ معقولةِ المعنى مقصودةٍ للشارع، وإذا كان كذلك فالنهي دائرٌ مع العلة وجودًا وعدمًا، فإذا وُجِدَ ما عَلَّل به الرسول، كان النهيُ متوجهًا ومتجهًا، وإذا لم توجد فالنهي مفقود"(٢٠).

وخلاصة قول الشاطبي أن الرُّخَص مشرعةٌ لعلل ومقاصد: ألا تتزاحم الأعمال على المرء؛ فتأدية العبادة يعطل عملًا آخرَ مهمًا، وألا يدخل الحرجُ والعنتُ في العبادة؛ فتصبح مكروهةً ومنفرة.

لذلك فإن وَجَد المرءُ أن تأديةَ العبادةِ لا تزاحم عليه أعمالَه ولن يدخل الحرج في عبادته، فله أن يختار: إما أن يأخذَ بالرخص أو لا، أما إن زاد التعب، بحيث يزاحم عليه أعماله ويُدخِل الحرجَ في دينه، فيجب عليه الأخذ بالرخص.

عبادة النبي والصحابة محبةٌ وليست مشقة.

العبادات المجهِدة التي كان يداوم عليها النبيُّ والصحابةُ والصالحون ليست دليلًا على تعمدِهم المشقة؛ فهم لم يتعمدوا المشقة، ولو تعمَّدوها ما زادهم عبادةً وصلاحًا، وإنما قصدوا التقربَ من الله، والاستزادةَ من مناجاته، والأنسَ بذكره، واستحضارَ جلاله، فأطالوا الصلاة، وأقاموا الليل، وحجوا البيت، وزادوا في الصدقات، حتى أصبحوا لا يبالون بمشقةٍ وجهد، فهذه العبادة في ظاهرها المشقة، لكنَّ في قلوبهم لذةَ العارفين وشوقَ المحبين، فرسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذي تتورم قدماه من الصلاة، هو نفسه يقول عنها: "أرحنا بها يا بلال"(٢١)، فهو محِبٌّ أكثر منه مُعذِّبٌ لنفسه.

المشقة اضطرار.

الوضع الصحيح للمشقة: أنها دائمًا في وضع اضطرار، لا نتعمدها ولا نقصدها، ولا نستخف بها، بل لا نلجأ إليها إلا اضطرارًا، وعندئذٍ فقط نختبر شجاعتنا في الصمود.

يقول بيجوفيتش: "البحث عن المشقة ليس شجاعة، بل جنون. فالشجاعة هي استعداد الإنسان أن يواجهَ بحكمةٍ المتاعبَ التي لا يمكنه تجنبُها"(٢٢.(

ويَلْمَح خالد محمد خالد جانبًا من عظمةِ النبي وتجنبِه المشقة، فيقول" :وجد النبيُّ أصحابَه يُعذَّبون في مكة؛ فأمر بهجرتهم إلي الحبشة. لماذا وفي بقائهم إغراءٌ لغيرهم بالدخول في الإسلام؟

هنا تومض عظمة النبي؛ فهو لا يريد حربًا أهلية، ولو كان فيها يقين نصره، لا يطيق أن يرى أصحابَه يُعذَّبون، مع علمه أن التضحيةَ ضريبةُ كلِّ جهاد، لكن التضحيةَ تُبْذَل حين لا يكون هناك مفرٌّ من بذلها، أما الآن وهناك سبيلٌ لحماية المسلمين فليذهبوا إليه"(٢٣.(

ونختم بلفتةٍ قرآنية، إذ يقول تعالى: "فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا."

يقول سيد قطب: "وإنه لما يستحق الانتباه هنا أن النهيَ الذي أعقب الأمر بالاستقامة لم يكن نهيًا عن القصور والتقصير، إنما كان نهيًا عن الطغيان والمجاوزة.. وذلك أن الأمر بالاستقامة وما يتبعه في الضمير من يقظةٍ وتحرجٍ قد ينتهي إلى الغلوِّ والمبالغةِ التي تحول هذا الدين من يسرٍ إلى عسر، والله يريد دينَه كما أنزله، ويريد الاستقامةَ على ما أَمَر، دون إفراطٍ ولا غلو، فالإفراطُ والغلوُّ يُخرِجان هذا الدينَ عن طبيعته كالتفريط والتقصير. وهي التفاتةٌ ذاتُ قيمةٍ كبيرة"(٢٤.(

الولاء والبراء .. شخصي أم موضوعي؟

بواسطة خالد باظه في 9سبتمبر ٢٠٢٠

ساد مفهوم الولاء والبراء حتى تدخَّل في العقيدة، وأصبح ركنًا من أركان العقيدة: (عقيدة الولاء والبراء)، ومن ينكره يُتهم بالكفر، ومقتضى هذا المفهوم ألّا نوالي سوى المسلم، ونبرأ من كل غير المسلمين، نبرأ من أشخاصهم، وأعمالهم، وحبهم، وصداقتهم، وتأييدهم! باختصار هو إعلان قطيعة مع غير المسلم!

الولاء والبراء في الجاهلية

لم يكن للعرب قبل الإسلام حكومة مركزية تحفظ حقوقهم، ولا شرطة مركزية تردع المخالفين، لذا لم يوجد سبيل أمامهم سوى اللجوء إلى القبيلة، فهي الحِمى عند الخطر، وهي مصدر العزة والفخر، لذلك يستحيل أن يعيش العربي وحده مبتورًا دون قبيلة ينصهر فيها، فيذوب في قبيلة تحميه وتحفظ قدره، ومن هنا تمكَّن التعصب القبلي من العرب، ونصرة القبيلة ولو على الباطل، والمبالغة في الثأر، والتعالي على الغير، حتى قال الشاعر العربي:

لا يسألون أخاهم حينَ يندُبُهم .. في النائبات على ما قال برهانا

أي أن العربي الحق من ينصر أخاه ويقاتل أعداءه، دون أن يسأله عن برهان صدقه، ومن هنا ساد شعار:"انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا."

ومن الساخر أن رجلًا كان يطوف بالكعبة وهو يدعو لأبيه، قيل له: ألا تدعو لأمك؟ فقال: إنها من قبيلة أخرى(١!(

الولاء والبراء في الإسلام

جاء الإسلام لينقل الإنسان من ضحل الجاهلية، وتعصب القبيلة، والنزعة العِرقية، والفخر الكاذب، إلى التمسك بالحق/ المبدأ/ الخُلُق الحسن، مهما كان فاعله، وحتى لو كان التمسك بالحق على حساب أولي القربى، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ).

وبذلك فقد أعلن الإسلام أنه موضوعي/ أخلاقي وليس شخصيًا/ قبليًّا/ متعصبًا /شعبويًا.

ولذلك لا يتستر على الخطأ إن صدر عن مسلم؛ فحين أخطأ خالد بن الوليد وقتل أبرياء ظلمًا، قال النبي:"اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد"(٢.(

وقال النبي لابنته فاطمة:"والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها"(٣.(

ولذلك يعترف بالفضل ويمتدح الخير إن صدر عن غير مسلم؛ فامتدح القرآن أمانة بعض أهل الكتاب، فقال:(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا.(

وقد شهد القرآن بحسن إدارة ملكة بلقيس، واتخذها نموذجًا يُقتدى به للحكم الرشيد، رغم كفرها، (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ.(

إذن، فالولاء والبراء في الإسلام موضوعي وليس شخصي، هو تبرؤ من كل خطأ أيًا كان فاعله، وموالاة لكل حق أيًا كان فاعله.

تزييف الولاء والبراء

زاغ البعض عن هذه البوصلة الموضوعية، واعتبر أن الدين يتبرأ من كل أفعال غير المسلمين مهما كانت، ويوالي المسلمين مهما فعلوا، وبذلك جعلوا الدين شخصيًا وليس موضوعيًا، ينظر للفاعل وليس الفعل، يعيد بناء التعصب القبلي مرة أخرى، ويستشهدون بمجموع آيات تدعوا لموالاة المسلمين، والتبرؤ من غير المسلمين!

لكن إجمالًا كل الآيات التي تتحدث عن الولاء والبراء جاءت في سياق قتال بين المسلمين والكافرين، وتخاطب مجموعة من الخونة، الذين باعوا أنفسهم للمال، فتجسسوا على المسلمين، وأعانوا الكافرين على إخوانهم، وأرشدوا الكفار لقتال أهلهم، فنزل فيهم قرآن يعدهم عذاب الجحيم، ويصمهم بالكفر أو أعوان الكفر؛ لأنهم حين وُضعوا في موضع اختيار بين الإيمان والكفر، اختاروا الكفر على الإيمان. ولأنه لم يشم رائحة الإسلام من أعان على قتل أخيه المسلم البريء.

وتفصيلًا نتتبع هذه الآيات ونتفحص أسباب نزولها ومعانيها:

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ.(

يقول محمد عبده:"الأولياء: الأنصار، والاتخاذ يفيد معنى الاصطناع. وهو عبارة عن مكاشفتهم بالأسرار الخاصة بمصلحة الدين، وقوله: (من دون المؤمنين (قيد في الاتخاذ؛ أي لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء وأنصارًا في شيء تُقدَّم فيه مصلحتهم على مصلحة المؤمنين، أي كما فعل حاطب بن أبي بلتعة،)الذي تجسس على المسلمين ونقل أخبارهم لقريش)؛ لأن في هذا اختيارًا لهم وتفضيل على المؤمنين، بل فيه إعانة للكفر على الإيمان ولو بطريق اللزوم، من شأن هذا ألا يصدر من مؤمن ولو كان فيه مصلحة خاصة له"(٤.(

)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ.(

يروي الطبري أن الآية نزلت لما حارب يهودُ بني قينقاع رسولَ الله، وعندئذ كان بعض المسلمين على علاقة وثيقة بيهودي بني قينقاع، علاقة تجارة وحِلف وقرابة، فانقسم المسلمون، منهم من وقف جوار بني قينقاع، ومنهم من وقف جوار المسلمين، فعبادة بن الصامت قال: يا رسول الله، أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم! أما عبد الله بن أبي فتشبث باليهود بدافع الحفاظ على تجارته، فنزلت هذه الآية تأمر المسلمين بالوقوف جوار الإسلام والنبي والحق، ولو على حساب تجارتهم(٥.(

ولذلك جاءت الآية التالية: (فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ.(

إذن فالآية تنهى عن موالاة جماعة معينة من اليهود والنصارى، وهم المقاتلون للمسلمين.

)لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ.(

يقول البغوي:"عن ابن عباس نزلت في المنافقين: عبد الله بن أُبَي وأصحابه؛ كانوا يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالأخبار ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله، فأنزل الله عز وجل هذه الآية، ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم. قوله تعالى: (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ) أي موالاة الكفار في نقل الأخبار إليهم وإظهارهم على عورة المسلمين (فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)"(٦.(

) –لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ.(

يقول القرضاوي:(حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) أي حارب الله ورسوله، فهذا شخص معادٍ للإسلام وأهله، فكيف يُطلب من المسلم أن يظهر له الود والمحبة؟!

فهذه الآيات ليست في مطلق يهود ونصارى عاديين مسالمين للمسلمين، بل في يهود ونصارى معادين لهم، محاربين لدعوتهم"(٧.(

ويقول القاسمي: "يُفهم من قوله تعالى: (حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ (وقوله في آية أخرى: (لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ (أن المراد بهم: المحاربون لله ولرسوله، الصادون عن سبيله، المجاهرون بالعداوة والبغضاء. وهم الذين أخبر عنهم قبل بأنهم (وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ.(فتشمل الآية المشركين وأهل الكتاب المحاربين والمحادين لنا، أي: الذين على حد منا، ومجانبة لشؤوننا، تحقيقًا لمخالفتنا، وترصدًا للإيقاع بنا. وأما أهل الذمة الذين بين أظهرنا، ممن رضي بأداء الجزية لنا وسالمنا، واستكان لأحكامنا وقضائنا، فأولئك لا تشملهم الآية؛ لأنهم ليسوا بمحادين لنا بالمعنى الذي ذكرناه، ولذا كان لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، وجاز التزوج منهم ومشاركتهم، والاتجار معهم، وعيادة مرضاهم. فقد عاد النبي يهوديًا، وعرض عليه الإسلام فأسلم"(٨.(

) –يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.(

يقول البيضاوي:"نزلت في المهاجرين، فإنهم لما أُمِروا بالهجرة قالوا :إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا، وذهبت تجاراتنا وبقينا ضائعين . وقيل نزلت نهيًا عن موالاة التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة. والمعنى: لا تتخذوهم أولياء يمنعونكم عن الإيمان ويصدونكم عن الطاعة لقوله: (إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ) إن اختاروه وحرصوا عليه) .وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) بوضعهم الموالاة في غير موضعها"(٩.(

ومما يؤكد هذا التفسير أن سياق الآيات يتحدث أولًا عن المهاجرين الذين استجابوا لنداء الإيمان: (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ.(

ثم انتقل للصنف الآخر، الذين فضَّلوا الجلوس جوار آبائهم وتجارتهم وأموالهم على الدين والحق ونصرة المظلومين، فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ.(

وبذلك قد ثبت أن الآيات التي تنهى عن مودة وموالاة اليهود والنصارى، أو تأمر بالتبرأ منهم، إنما تتحدث عن المقاتلين والمحاربين منهم، والولاء المنهي عنه هنا هو خيانة جيش المسلمين لصالح الأعداء المحاربين.

يقول محمد الغزالي:"إن ولاية الكفار – والحالة هذه – خيانة عظمى"(١٠.(

ولو كان المقصود بالبراء كراهية غير المسلمين وقطع معاملتهم، فهو ما يستحيل تطبيقه مع إباحة الزواج من الكتابية، فكيف أتزوج كتابية ولا أحبها؟ !وكيف يأمر الأب أبناءه أن يكرهوا أمهم الكتابية؟! وكيف أباح الإسلام طعام أهل الكتاب، بما يسمح بالموائد والتزاور، وفي نفس الوقت يحرِّم ودهم؟!

الدين الذي يسمح باختلاف الأديان في بيت صغير تتلاقى فيه الوجوه، وتتقارب الأبدان، وتشتبك المشاعر، لا يضيق ألبتة باختلاف الدين في وطن كبير تتسع فيه المصالح، وتتعدد الحاجات والكفايات، ويستحب فيه التعاون على بلوغ الغايات"(١١.(

إذن فنحن نوالي الحق، أيًا كان فاعله، ونتبرأ من الباطل، أيًا كان فاعله.

يقول علي عزت بيجوفيتش: "لا يمكنني أن أدافع عن شيء ما، لمجرد أنه صدر عن المسلمين، وكذلك لا يمكنني أن أتجاهل شيئًا ما صالحًا، لمجرد أنه صدر عن غير المسلمين"(١٢).

السلف بين التقديس والإهانة

شعار الدعوة السلفية: "الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة"، وكثيرون يعتبرون دراسة الفقه هي حفظ فتاوى السلف أو المذاهب الأربعة. وحين يختلف علماء قدامى مع معاصرين، يرجح الغالبية رأي القدماء؛ لأنهم أقرب لعصر النبي، وبالتالي فهُم أقرب لروح الدين، وأقرب للغة العرب وقت نزول الوحي، وهم أجَلُّ قيمة، وأكثر علمًا من المعاصرين!

ومن هذا الفهم انتشرت مقولة في عهد المعتصم: "كل آية تخالف مذهبنا فهي منسوخة، وكل حديث يخالف رأي صاحبنا فهو موضوع!"

أولًا: التقليد

يوجد فرق جوهري بين نقل خبر والرأي المنطقي؛ فنقل الخبر قائم على الثقة في الراوي، أما الرأي/ الفكرة فهي تُولد، تنهض على أرجلها الخاصة، تتوكأ على أدلتها، وتغادر بيت أبيها، فلا تسقط بسقوطه، أو تنجرح بجراحه. فقوة الفكرة لا تكمن فى الأصل الذى يميها، بل فى الأدلة التى تزكيها.

لذلك يقر أحمد الزروق قاعدة: "ما كان معقولًا، فبرهانه في نفسه، فلذلك لا يحتاج لمعرفة قائلة. والمنقول موكول لأمانة ناقله"(١).

واتفق علماء الإسلام على قاعدة: "إن كنتَ ناقلًا فالصحة، وإن كنتَ مدَّعيًا فالدليل."

ودور الفقيه هو فهم الدين واستنباط أحكامه، ولا يمكن للفقيه أن يشرِّع من عنده، بل هو مستند على أدلة، ومن هنا فنحن لا نقلِّد العالِم لشخصه، وإنما نتَّبعه لثقتنا في الدليل الذي يفهمه. وبالتالي إذا وجدنا دليلًا يعارض رأي إمام، أو أغلب الأئمة، فلا مفر من العودة للأصل واتباع الدليل.

واتباع عالِم رغم ثبوت ضعف دليله هو ما ذمه الله حين قال: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ).

يقول أبو حامد الغزالي: "عادة ضعفاء العقول يعرفون الحق بالرجال، لا الرجال بالحق. والعاقل يقتدي بقول أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب، حيث قال: "لا تعرف الحق بالرجال، بل اعرف الحق تعرف أهله"، والعارف العاقل يعرف الحق، ثم ينظر في نفس القول، فإن كان حقًا، قبله سواء كان قائله مبطلًا أو محقًا، بل ربما يحرص على انتزاع الحق من تضاعيف كلام أهل الضلال"(٢).

ونعرض حوارًا قيِّمًا بين الشيخ الدلاصي ومحمد عبده حول تقليد الأئمة:

–الدلاصي: أنا قد اتخذت الشافعي إمامًا، فإذا وجدتُ في مذهبه شيئًا، ورأيت في كتاب الله شيئًا يناقضه، أراني مرتاحًا للعمل بقول الشافعي.

–محمد عبده: قولك خطأ كبير، وفيه خطر عظيم، فإن الذين أجازوا لك تقليد الشافعي أو غيره من الأئمة يشترطون ألا تعرض لك شبهة في كتاب الله فتعمل بنقيضه. نعم الناس إمام ومأموم، لكن إمام هذه الأمة واحد، وهو رسول الله، وإنما العلماء ناقلون ومبيِّنون عنه، فمتى تعارض كلامهم مع ما جاء عنه، رجعنا إليه كما أمرونا.

–الدلاصي: إنني لا أشك في كتاب الله، ولكن أعلم أن إمامي قد اطلع على الآية وفهمها أحسن مما أفهمها.

–محمد عبده: إن الله يحاسبك على ما تفهم وتعتقد، لا على ما فهم الشافعي .وأنت قلتَ الآن إنك ترى الآية مناقضة لقول الشافعي، فترجيحك قول الشافعي حينئذ يقتضي أن يكون قول الله مرجوحًا. وترجيح أحدهما يقتضي بطلان الآخر!(٣)

ثانيًا: تراكم المعرفة

يجب الفصل بين قيمة العالم الشخصية وبين رأيه العلمي؛ فليس المقام مقارنة قدر الأشخاص لنعرف أيهم أفضل وأتقى، وإنما المقام مقارنة رأي برأي، حجة تواجه حجة.

غير خفي أن الحضارة تراكمية، فبمرور الزمان تتراكم الخبرات العلمية وتزداد الأدوات تسهيلًا وتمكينًا، فلو دخل نيوتن وأينشتين امتحان طالب جامعي اليوم لرسِبَا! وذلك ليس لضعف في عقليهما، وإنما لأنهما يجهلان تراكم المعرفة الهائل الذي أُستحدث بعد وفاتهما.

يشبه الأمر مقارنة رسام محترف قديم استطاع بمهارته وبيديه فقط رسم دائرة تقترب من المثالية، بتلميذ صغير رسم دائرة مثالية تمامًا باستخدام فرجار، فالرسام بلا شك أفضل من التلميذ، لكن ذلك لا يمنع أن دائرة التلميذ أفضل من دائرة الرسام!

صحيح أن العلوم الطبيعية تسعى للتجديد والتغيير، بينما العلوم الشرعية تسعى للعودة إلى الأصل والمنبع، فتبحث عن الماضي، لكن بمرور الزمان تزداد الأدوات التي تمكننا من الكشف عن المنبع القديم، مثلًا حاليًا يستطيع طالب عالم أن يجمع كل طرق حديث وكل الرواة ليُعِد دراسة شاملة وافية عن صحة حديث في دقائق، بينما قديمًا ربما عالم عظيم ولم يصله حديث، أو لم يصله تجريح راوٍ.

وحاليًا لدينا معاجم مختلفة للغة، وتجميع لأشعار العرب، فيسهل علينا البحث عن معاني كلمات عند العرب وقت التنزيل، بينما قديمًا ربما لم يصل معنى كلمة إلى عالم جليل من السلف.

يستطيع طالب العلم اليوم أن يحصد رأي مئة عالم في مسألة قبل التفكير والنظر فيها، ولا شك أن تراكم هذه الآراء وتعدد زوايا النظر، هو إرث وثروة تمكِّن الطالب من الإلمام بالمسألة، بينما قديمًا لم يكن مهيأ تواصل العلماء وتبادل أفكارهم.

إذن فرغم أن طالب العلم الحالي أقل قدرًا من العالم الجليل السابق، إلا أن علم الطالب – بفضل الأدوات الحديثة – أكبر وأدق وأشمل.

ثالثًا: المنهج والفتوى

يجب التفريق بين منهج السلف العام وفتاواهم؛ فمناهجهم اختصت بكيفية فهم الوحي وكيفية تطبيقه، ووضعوا لذلك علومًا شرعية وقواعد فقهية ومصادر تشريعية، وبذلك فهي ممتدة، لا تتوقف على زمن.

أما فتاواهم، فقد اختصت بواقعهم هم، ولا تمتد لواقع آخر، لأن الفتوى هي عملية عقلية لإسقاط أحكام الشرع على حدث بعينه، فالفتوى عملية معقدة تربط فقه النصوص بفقه الواقع، لذلك قد تتغير بتغير الزمان، أو المكان، أو الأشخاص، أو الأحوال.

أما استدعاء فتاوى السلف وحفظها لتكرارها في أي موقف، فهو اغتراب زماني، وتطبيق لأحكام في غير محلها، لا يرتضيه السلف أنفسهم.

يقول د. علي جمعه: "إننا في تعاملنا مع التراث لا ينبغي أن نقف عند مسائل السلف، بل لابد علينا أن نأخذ بمناهجهم، فمسائل السلف مرتبطة بأزمانهم، ومشكلات الواقع الذي عاشوه، في حين أن مناهجهم اهتمت بكيفية تطبيق الوحي الإلهي على الوجود، وبمعنى آخر اهتمت بتطبيق المطلق على النسبي"(٤).

رابعًا: هم رجال ونحن رجال

إن كان المقصود بالسلف من سبقونا، فكون عالم سبق غيره لا تعد هذه ميزة لرأيه تستوجب تقليده. وإن كان السلف أنفسهم قد اختلفوا من عهد الصحابة والتابعين والفقهاء، فنشأت الفرق والمذاهب، فأي سلف نتَّبع؟!

يقول جمال الدين الأفغاني: "من الخطأ الذي لا يُغتفر أن نقف موقف الجمود عند أقوال أناس هم أنفسهم لم يقفوا عند أقوال من سبقوهم"(٥).

والأئمة الأربعة أنفسهم نبهوا إلى عدم تقليدهم:

فقال أبو حنيفة: " لايحل لمن يفتي من كتبي أن يفتي حتى يعلم من أين قلت"(٦).

وقال مالك: "كل أحد يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر"(٧)، وقال" :إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه وكل مالم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه"(٨.(

وقال الشافعي: "كل ما قلتُ لكم، فلم تشهد عليه عقولكم وتقبله وتراه حقًا، فلا تقبلوه. فإن العقول مضطرة إلى قبول الحق"(٩.(

وقال أحمد بن حنبل: "لا تقلدني، ولا تقلد مالكًا، ولا الثوري، ولا الأوزاعي، وخذ من حيث أخذوا"، وقال: "من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال"(١٠.(

خامسًا: التراث كنز

ليست هذه دعوة لهجر التراث، أو الانسلاخ عن حضارتنا، أو القدح في أئمتنا، وإنما هي دعوة لاعتبار التراث وجهود السلف هي كنز معرفي وفير، ندرسه بعناية، ونقتنص جواهره، ونستخرج درره، ونعيد بناءه بما يتناسب مع عصرنا، ونقبل الصواب ونرد الخطأ، هكذا بكل بساطة دون إثارة أزمة، أو قطيعة، أو إهانة، أو تقديس.

يقول القرضاوي: "الفقه الإسلامي تركة كبرى، مِلك لكل باحث، يُنَقِب في زواياه، مقارِنًا بين قول وقول، وبين دليل ودليل، دون تعصب لرأي، أو تقليد دائم لمذهب، بل قد نأخذ مرة برأي أبي حنيفة، ومرة برأي مالك، بل قد نخرج عن المذاهب السنية إلى مذهب الزيدية والجعفرية والإباضية، إذا وجدنا الحل فيها، وقد نأخذ بالمذاهب المنقرضة، مثل: الأوزاعي، أو الثوري، أو الطبري .بل قد نخرج عن المذاهب كلها إلى الساحة الرحبة لفقهاء الصحابة والتابعين والأتباع، ممن ليس لهم مذهب متبوع، كالخلفاء الراشدين، وابن مسعود، وتلاميذهم، إلخ"(١١.(

إذن فدعوى توقف الاجتهاد والاكتفاء بفتاوى السلف، وحصر الفقه في الأئمة الأربعة، ونقل فتاوى محفوظة جاهزة هو تقليد أعمى مُضِل، ينهى عنه العقل والشرع، ولذلك التقليد حرام على العلماء، وإنما واجب عليهم الرجوع للنص المقدس نفسه ليجتهدوا بأنفسهم.

بهذا النهج نميِّز المقدس/ الملزِم/ المعصوم/ الثابت .. عن البشري/ الناقص/ المتغير.

حرية الكفر

لا نكاد نحصي كم المفاهيم المشوّهة عن علاقة الإسلام بغير المسلمين، ففي كلّ مناسبة لاحتكاك المسلمين بغيرهم تطفو تعاملات كراهية ونفور وتوتّر، نرصد بعضًا من هذه المفاهيم:

يُمنع غير المسلمين من بناء كنائس ومعابد في البلاد الإسلاميّة.

لا يُسمح لغير المسلمين بالدّعوة إلى دينهم.

لا يُسمح لغير المؤمنين المجاهرة بمعتقداتهم.

وفي كلّ مناسبة تظهر أسئلة مكرّرة: هل يجوز صداقة غير المسلم؟ هل يجوز تهنئته؟

ويتوتّر الأمر أكثر في أسئلة سياسيّة: هل يجوز أن يصل غير المسلم إلى مناصب قياديّة في الدّولة؟ هل يجوز إعدام مسلم قصاصًا إن قتل غير مسلم؟

هذه التوتُّرات تستلزم فتح ملف: علاقة الإسلام بغير المسلمين من جذورها:

أولًا :حريّة العقيدة

.1الاختلاف سنة كونيّة:

أوّل المفاهيم التمهيديّة لحريّة الاعتقاد هو تقبُّل وجود الاختلاف والتباين بين البشر، والاعتراف بأنّ هذا التباين كان ومازال وسيظل موجودًا بين البشر، وكلُّ فكرةٍ تحاول جَبْرَ البشر جميعًا نحو توجهٍ واحدٍ هي فكرة ساذجة وغير واقعيّة، وبالتالي ستفشل.

)وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ.(

)وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا.(

.دعاة لا قضاة:

جوهر مفهوم الحريّة هو رفع أيدي الناس ورفع الملام ورفع الحساب بين البشر وبعضهم على الاعتقاد، فيعلن القرآن بوضوح: حساب البشر على معتقداتهم عند الله وحده في الآخرة، وغير مسموح للبشر حساب بعضهم على معتقداتهم.

)إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.(

)وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ.(

حتّى الأنبياء والرُّسل رفع القرآن أيديهم عن حساب الناس أو جبرهم، وحصر كل دورهم في البلاغ فقط. (مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ.(

.3الإكراه سبيل الطغاة:

يؤكد القرآن أنّ الإكراه في الدّين هو منهج الكفَّار وأشياعهم لا الرُسُل وأتباعهم، فقد توسَّل الكفَّار بالسبّ، والاضطهاد والتّعذيب والذّبح والرّجم والإخراج من الدِّيار، وغير ذلك لإثناء المؤمنين عن دينهم، أمّا المؤمنون فما كان لهم أن يقتدوا بمنهج الكافرين السفّاحين المستبدّين.

وفي الحقيقة قصص الأنبياء المتناثرة في القرآن كله هي في الأصل قصص مضطهَدين ومقهورين ومظلومين، هي قصص رجال أعلنوا دعوتهم وتلقوا الوبال من قومهم.

قوم شعيب) :قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ.(

قوم نوح) :قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ.(

أبو إبراهيم) :قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا.(

أحد فتية الكهف يتحدث عن المشركين) :إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا.(

.4الإكراه ليس إيمانًا:

اعتبر القرآن الإكراه ليس إيمانًا، فالمُكرَه على الإيمان لا يسمَّى مؤمنًا، والمُكرَه على الكُفْر لا يسمّى كافرًا، ولا يُحاسب البشر على ما استُكْرِهوا عليه.

)مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ.(

قال النبي: "تجاوز الله عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه"(١.(

.5حريّة الاختيار مكفولة للجميع:

عدَّ القرآن حرية الاعتقاد- ولو كان خاطئًا- هي حرية إنسانيّة مكفولة للجميع، وكلّ إنسان يتحمّل وحده نتاج اختياره.

)فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ.(

)مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى.(

.6النهي عن الإكراه في الدين:

لم يكتفِ القرآن بتلميحات وإشارات إلى حريّة الاعتقاد، بل اعتبرها قضية حساسة وجوهريّة تستحق التصريح والتأكيد والتكرار.

)لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ.(

)فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ.(

)أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ.(

يقول محمد الغزالي: "قد يحدث أن يُكرِه المرء ولده على الذهاب إلى المدرسة، أو يُكرِه مريضه على الذهاب إلى المستشفى، ويجد نبل الغاية مسوغًا لهذا الإكراه، ويعتبر قصور الطفل عن فهم مصلحته مبررًا لفرض إرادته تحقيقًا لنفع محض."

ربّما حاول بعض المؤمنين بدافع من الثقة في صدق دينهم أن يحملوا الآخرين على الدخول فيه، يقصدون بذلك إدخالهم في الجنة وإنقاذهم من النار، وخصوصًا إذا كان هؤلاء أولادهم أو أقاربهم. حدث هذا على عهد النبي أن كان لرجل من الأنصار ابنان تنصَّرا، ثم قدِما المدينة، فلزمهما أبوهما وقال :لا أدعكما حتى تسلما، فأبيا، واختصموا إلى النبيّ، فقال الوالد: أيدخل بعض ولدي النار وأنا أنظر؟ فرفض النبي حملهما على الإسلام، وأمر بتخلية سبيلهما.

إنّ الإكراه لا يكوّن العقائد، إنّه على العكس ينفِّر منها ويسيء بها الظنون، وطبائع الأشياء ترسم للعقائد طريقًا يبدأ حتمًا من الحرية العقلية المطلقة(٢.(

.7الجهاد حتّى لا تكون فتنة في الدين:

لم يكتفِ القرآن بالنهي عن الإكراه في الدين، بل نادى بالجهاد المسلّح لرفع الفتنة عن الدين، والدفاع عن المضطهدين في الأرض، وتخليص المقهورين من المستبدين.

)وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ.(

فلو أن معتدٍ اضطهد يهوديًا ليغيّر دينه، وجب على المسلمين – متى تمكّنوا – أن يحاربوا المعتدي ليرفعوا الظلم عن اليهودي، ويتمكن من التعبُّد بدينه الذي ارتضاه، حتى لا تكون فتنة، وحتى لا يكون إكراهًا في الدين. يقول القرضاوي: "الظاهر أنّ المسلمين مدعوون لإغاثة الملهوفين، وإزالة الظلم عن المظلومين، ورفع الأذى عن جميع الناس، وإن لم يكونوا مسلمين، إذا كان المسلم قادرًا"(٣.(

.8حق استقلال الرأي وذم التقليد:

لم يكتفِ القرآن برفع يد المستبدين الذين يجبرون قومهم على دين، بل رفع يد العلماء والمفكرين الذين يمارسون سلطة المعرفة على العامة ويأمرونهم باتباعهم وتقليدهم، حتى هذا الضغط الفكريّ والنفسيّ واجهه القرآن فهاجم التقليد والتبعية.

)وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ.(

)وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا.(

)قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.(

وبذلك فقد حرَّر القرآن البشر من كل قيد أو سلطة أو إكراه أو جبر أو تقليد أو تبعية؛ ليتحمَّل العقل مهمته منفردًا ومستقلًا، (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى.(

.9تحرير الإنسان من التسلُّط باسم الدين:

ينزع القرآن عن رسول الله كل صورة من التقديس، والتسلط، بل يعتبره رسولًا لله، مهمته تبليغ الرسالة، وليس له سلطان على رقاب الناس، فليس وسيطًا بين العباد وربّهم، وليس متسلطًا على حياة الناس الخاصّة، وأموالهم الشخصية، وعبادتهم لربهم:

)قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ.(

)لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ.(

)فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ.(

وإن كان هذا وضع أفضل خلق الله المصطفى الموحى إليه، فهو بذلك ينسف كل صور التقديس والتمييز والوساطة لأي بشر أيًا كان، سواء كان شيخًا أو عالمًا أو عابدًا أو وليًّا أو رئيسًا لمؤسسة دينية أو رمزًا دينيًا أو ملِكًا.

ويُشنّع القرآن على من يسمحون لرجال الدين أن يمارسوا عليهم سلطة دينيّة، فيحلُّوا ويحرّموا من تلقاء أنفسهم، فيصوّر القرآن هذا التقليد والتبعية كأنهم اتخذوهم أربابًا من دون الله، فقال تعالى: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ.(

يقول الكواكبي" :الإسلام يجعل الإنسان لا يرجو ولا يهاب من رسولٍ أو نبيّ، أو ملكٍ أو فلك، أو وليٍ أو جنّي، أو ساحرٍ أو كاهن، أو شيطانٍ أو سلطان."

وأعظم بهذا التعليم الذي يرمي الإنسان عن عاتقه جبالًا من الخوف والأوهام والخيالات، أوليس العتيق من الأوهام يصبح صحيح العقل، قويّ الإرادة، ثابت العزيمة، قائده الحكمة، سائقه الوجدان، فيعيش حرًا، فرحًا صبورًا فخورًا، لا يبالي حتى بالموت لعلمه بالسعادة التي يستقبلها، التي يمثّلها له القرآن بالجنان، فيها الرّوح والريحان؟(٤.(

ثانيًا: حريّة العبادة

هل يجوز بناء دور عبادة لغير المسلمين؟

ثبت بالأدلة المتواترة اليقينيّة تبنيّ الإسلام لحريّة العقيدة، ويلزم عن ذلك السماح بحريّة العبادة؛ إذ لا معنى لحريّة الاعتقاد مع منع التعبد، لذلك لا نحتاج إلى أدلّة إضافيّة هنا تثبت سماح الإسلام للآخرين بحريّة التعبُّد.

يقول فهمي هويدي" :عندما يقرِّر الإسلام شرعية الآخرين، ويحث على وجوب احترام عقائدهم وعوائدهم، فإنّ أول ما ينبغي أن يكون مصونًا للآخرين من حقوقهم هو حريّة العبادة، وليس مقبولًا بأيّ منطق ولا بأي معيار أن تكون حرية العبادة مكفولة لفريق، على النّحو الذي ضمنه الإسلام، ثم لا تكون حريّة إقامة المعابد مكفولة بنفس القدر، ذلك أساس مستقِر، والإخلال به يعد نقصًا فادحًا لواحدة من حقائق الإسلام الأساسية"(٥.(

لكن تفشَّت فتوى بتحريم بناء الكنائس، وأدلتها حديث: "لا تُبنى كنيسة في الإسلام، ولا يُجدَّد ما خرب منها"، "لا كنيسة في الإسلام"، "لا تكون قبلتان في بلد واحد"، "اهدموا الصوامع واهدموا البِيَع."

وكلها أحاديث لم تصحّ عن النبي، بل مكذوبة وموضوعة، فيسقط الاستدلال بها، لذلك يقول القرضاوي: "لا نجد مانعًا شرعيًّا من بناء الكنائس، ما دام أهل الذمَّة يتكاثرون، ويحتاجون إلى كنائس يتعبدون فيها، وتتَّسع لأعدادهم المتزايدة."

ويبدو أن العمل جرى على هذا في تاريخ المسلمين، وذلك منذ عهد مُبكِّر، فقد بُنِيت في مصر عِدَّة كنائس في القرن الأول الهجري، مثل كنيسة (مار مرقص) بالإسكندرية ما بين (٣٩ – ٥٦ هـ). كما بُنِيت أول كنيسة بالفسطاط في حارة الروم، في ولاية مَسلمة بن مَخلَد على مصر بين عامي (٤٧ – ٦٨ هـ)، كما سمح عبد العزيز بن مروان حين أنشأ مدينة (حُلوان) ببناء كنيسة فيها، وسمح كذلك لبعض الأساقفة ببناء ديرين. وهناك أمثلة أخرى كثيرة، وقد ذكر المؤرخ المقريزي في كتابه (الخِطط) أمثلة عديدة، ثم ختم حديثه بقوله: "وجميع كنائس القاهرة المذكورة مُحدَثة في الإسلام بلا خلاف"(٦.(

ونجد في السيّرة النبويّة ما يؤكد سماح النبي العبادة للآخرين، فحين قدم نصارى نجران إلى المدينة، استقبلهم النبي في مسجده، ودعاهم إلى الإسلام، إلا أنّهم رفضوا، بل طلبوا السماح بأداء صلاتهم، فصلّوا داخل المسجد النبوي، ولمّا أراد الصحابة منعهم، قال النبي: "دعوهم"، فصلّوا إلى المشرق(٧.(

يقول د. عدنان إبراهيم: "فإذا جاز لهم أن يصلّوا في المسجد المختص بالمسلمين، فمن باب أولى بناء معابدهم الخاصة ليؤدوا فيها عباداتهم"(٨.(

ويقول د. عبد الكريم زيدان: "والقول الراجح فيما يخص معابد أهل الذّمة هو ما ذهب إليه الزيدية وابن القاسم المالكي من أنه يجوز لأهل الذّمة إحداث الكنائس والمعابد الأخرى؛ لأن الإسلام يقر أهل الذمة على عقائدهم، ومن لوازم هذا الإقرار السماح لهم بإنشاء معابدهم"(٩.(

ثالثًا: حريّة الدّعوة للدين

أحد لوازم حريّة الاعتقاد هو حريّة التّعبير عن هذا المعتقد؛ فإن أجاز الإسلام للبشر أن يظلوا على دينهم، فهو يعني السماح لهم بالعبادة على دينهم، والاحتكام إلى دينهم، والدعوة لدينهم، وانتماء أفراد جدد إلى دينهم.

قال تعالى) :وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.(

)فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ(..

إنّ الأمر بمجادلة ومحاجة غير المسلمين يعني إقامة مناظرات معهم، وطباعة كتب تحاورهم وترد على كتبهم، ونشر مجلات ترد على مجلاتهم، أي دعوة لإقامة حوار مفتوح ومتبادل بين الطرفين، ويلزم عن ذلك بالضرورة أن غير المسلمين يبادلوننا المحاججة والجدال والدّعوة لدينهم، وإلا ما معنى الجدال مع أخرس غير مسموح له بالدعوة لدينه؟.

ونجد في السيرة ما يؤيّد هذا الحق، فبعد فتح حصون خيبر غَنِم المسلمون من حصونها عدة صُحُف فيها التوراة، ورغم العلم بأنها مُحرَّفة وتحوي على أخطاء عقدية، إلا أن الصحابة حافظوا عليها، وحين جاء اليهود يطلبونها، تكلم فيها رسول الله مع الصحابة، وردوها لليهود، ولم يصنع ما صنعه الرومان بعد دخولهم أورشليم حين أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها(١٠).

وفي العهد الأموي كتب يوحنا الدمشقي كتاب (حوار بين مسيحي ومسلم) يناقش فيه القضايا الخلافية بين الإسلام والمسيحية، وينتصر للمسيحية، في صورة(إن قال لك العربي كذا، فقل له كذا .(والسماح بنشر هذا الكتاب في العهود الأولى للإسلام دال على قدر التسامح المنتشر وقتها(١١).

وكان العهد العباسيّ هو عصر انفتاح على أمم وديانات وثقافات مختلفة) :يهودية، ومسيحية، ومانوية، وزرادشتية، وبراهمة، ودهريين/ملحدين)، وكانت حرية الرأي والتعبير والدعوة في أوجها لا ترى سقفًا ولا تعرف حدًّا، وكل مؤمن بديانة نشر دعوته وعقائده بمنتهى الحريّة، فامتلأت الساحة العلمية بدعوات غير المسلمين، حتى انتقلت قصص أهل الكتاب إلى المسلمين، فدخلت الإسرائيليات في التفسير، وتأهَّب علماء الكلام للدفاع عن الإسلام، فاستمعوا لغيرهم، وخاضوا مناظرات مع يهود، ونصارى، ومانوية، وزرادشتية، وبراهمة، وملحدين، وهذا الاقتراب والانفتاح دال على مدى حرية الدعوة والتعبير في هذا العصر(١٢).

يقول أبو الأعلى المودودي" :لغير المسلمين في الدولة الإسلامية من حرية الخطابة والكتابة والرأي والتفكير والاجتماع ما هو للمسلمين سواء بسواء. ولهم الحق في انتقاد الدين الإسلامي مثل ما للمسلمين من الحق في نقد مذاهبهم ونِحلهم. ويجب على المسلمين أن يلتزموا حدود القانون في نقدهم هذا كوجوب ذلك على غير المسلمين"(١٣).

ويقول علي شريعتي" :الإسلام يحث المسلمين على الدعوة إلى دينهم، ويُعِدُ ذلك وظيفة شرعية، ولكنه في نفس الوقت لا يحظر على الأقليات الدينية الأخرى أن تمارس الدعوة لنفسها"(١٤).

حرية الكفر (٢)

رابعًا: المساواة أمام القانون:

يظن البعض أنه طالما الإسلام هو الدين الحقّ، فهو يميّز المسلمين في الدنيا، ويجعل للمسلمِ على غيره درجة ويدًا وسلطة وعطاءً أكثر!

لكن ثمة فرق كبير بين عطاء الله في الآخرة -وهو مرهون بالإيمان الصحيح والعمل الصالح- وبين عطاء السلطة في الدنيا – هو مرهون بحقوق المواطنين - والمواطنون كلهم سواء، ولا فرق بينهم حسب الدين أو الجنس أو اللون أو اللغة.

ويعلن علي بن أبي طالب هذه المساواة فيقول: "أيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على من سواه لصحبته، فإن الفضل النير غدًا عند الله، وثوابه وأجره على الله.

وأيما رجل استجاب لله وللرسول، فصدَّق ملتنا، ودخل في ديننا، واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يُقَسَّم بينكم بالسوية، لا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله غدًا أحسن الجزاء وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجرًا ولا ثوابًا، وما عند الله خير للأبرار.

وإذا كان غدًا إن شاء الله فاغدوا علينا، فإن عندنا مالًا نقسمه فيكم، ولا يتخلفن أحد منكم، عربي ولا أعجمي، كان من أهل العطاء أو لم يكن، إلا حضر".(١)

لذلك نزل القرآن لتبرئة يهودي مظلوم وليُدين مسلمًا ظالما؛ فحين سرق أبناء طعمة بن أبيرق الدقيق والسلاح من جارهم رفاعة بن زيد، ولما افتضح بنو أبيرق طرحوا المسروق في دار يهودي، وجاؤوا إلى النبي فاشتكوا إليه أن رفاعة اتهمهم بالسرقة، وهم أهل إيمان وصلاح، وأن المسروق في بيت اليهودي، فأنزل الله تبرئة اليهودي وفضح جريمة أبناء طعمة بن أبيرق.

هل يُقتل مسلم بذمّي؟

أجمع الفقهاء على أن قتل غير المسلم كبيرة يُحاسب عليها المسلم في الآخرة، وقال النبي: "من قتل نفسًا معاهدًا، لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا".(٢)

أما عن القصاص في الدنيا، فقد أفتى الشافعي وأحمد بعدم قتل المسلم إن قتل ذمّيًا، وأفتى مالك بأن المسلم إن قتل ذميًا غيلةً (أي دون مواجهة (يُقتل، أما إن كان عن مواجهة، فلا يُقتل مسلم بذمي، مستندين على حديث النبي: "لا يُقتل مسلم بكافر!"

لكن القرآن صريح في حرمة الأنفس جميعها على حدٍ سواء بلا تمايز بينها، فقال تعالى:

)وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ)، وعدم قتل المسلم بالذمي هو مخالفة صريحة للآية؛ لأنه لم يجعل النَّفْسَ بالنَّفْسِ، بل ميَّز نفْسًا عن نفْسٍ.

)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى)، وقوله تعالى: (القتلى) عام يشمل كل قتيل بلا استثناء دين أو جنس.

)وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا.(

وأجمع الفقهاء على أن المسلم تُقطع يده حدًّا إن سرق غير مسلم؛ لأنه لا فرق بين مال المسلم وغيره، فكيف تتساوى الأموال وتختلف الأنفس؟!

وقد سأل أحد الولاة عمر بن عبد العزيز عن مسلم قتل ذميًا، فقال عمر" :ادفعه إلى وليّه، فإن شاء قتله، وإن شاء عفا عنه"، فدُفع إليه، فضرب عنقه.(٣)

أما عن قول النبي: "لا يُقتل مسلم بكافر"، فالمقصود بالكافر هنا :الكافر الحربي، ويؤكد ذلك إن أكملنا الحديث، فيقول النبي: "لا يُقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده"(٤)؛ أي لا يُقتل المسلم إن قتل الكافر، ولا يُقتل المعاهَد إن قتل الكافر، لكن المعاهَد هو غير مسلم، فإن كان المقصود بالكافر: كل من غير المسلمين، لأصبح غير المسلم لا يُقتل إن قتل غير المسلم، وهو بلا معنى، ولم يقل به أحد البتة، إذن فلا بد أن المقصود بالكافر: الكافر الحربي؛ فلا يُقتل المسلم إن قتل الكافر المحارب، ولا يُقتل المعاهَد إن قتل الكافر المحارب.

لذلك أفتى الشَّعبي، والنخعي، وابن أبي ليلى، وعثمان البتّي، وأبو حنيفة وأصحابه، والقرضاوي، بأن المسلم يُقتل إن قتل غير مسلم، وهذا ما اعتمدت عليه الخلافة العثمانية ونفذته.(٥)

خامسًا: المودة في التعامل:

.1التفريق بين الديانة ومتبعيها

يفرّق الإسلام بين موقفه من العقائد أو الديانات الأخرى وبين أتباع هذه الديانات، هذا التفريق يتمثل في أن موقف الإسلام من الديانات والعقائد الأخري ثابت، فقد أعلن بوضوح أن كل ديانة غير الإسلام باطلة، (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ)، وهذا الموقف لا يتغير مطلقًا، أما موقفه من أتباع هذه الديانات والعقائد فهو متغير، بحيث يصبح السلم لمن سالم، والعداء لمن عادى، والقتال لمن قاتل، إلخ.

يقول تعالى عن المقاتلين: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ.(

ويقول عن المسالمين: (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.(

.2القيم الأخلاقية شاملة للجميع

تحرِّم اليهودية الربا بين اليهود، لكنها تحله مع غير اليهود! وتحرِّم استرقاق اليهودي الغارم، لكنها تبيحه مع غير اليهود!

أما في الإسلام، فالقيم الأخلاقية تسري على البشر كافة، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين. يقول تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا)، هنا العدل والأمانة مع الجميع، أيًا كان.

كما أن أمره تعالى بالصدقة على الفقراء يشمل غير المسلمين.

وأمره بحسن معاملة الأسرى يشمل غير المسلمين الذين كانوا محاربين منذ ساعات.

ولا نحتاج للمرور على كل خلق لنثبت أنه شامل كل الناس، مسلمين وغير مسلمين.

بل أكثر من ذلك، فالإسلام يسكب في النفوس المؤمنة أخلاقيات ثابتة مهما كان خُلُق الآخر، فلا نخون ولا نغدر وإن خانوا، لا نكذب وإن كذبوا.

)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ.(

يقول سيد قطب: "فهو يأمر المسلمين ألا يتخذوا بطانة من هؤلاء. ولكنه لا يحرضهم على مقابلة الغل والحقد والكراهية والدس والمكر بمثلها. إنما هي مجرد الوقاية للجماعة المسلمة وللصف المسلم.. أما المسلم فبسماحة الإسلام يتعامل مع الناس جميعًا، وبنظافة الإسلام يعامل الناس جميعًا، وبمحبة الخير الشامل يلقى الناس جميعًا يتقي الكيد ولكنه لا يكيد، ويحذر الحقد ولكنه لا يحقد. إلا أن يحارب في دينه، وأن يفتن في عقيدته، وأن يصد عن سبيل الله ومنهجه".(٦(

.3مراعاة القرابة

كما يراعي الإسلام أن غير المسلم قد يكون قريبًا من المسلم، هذه القرابة قد تكون بسبب صلة رحم، فيقول تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)، هذا البر بالوالدين يتضمن الوالدين سواء كانا مسلمين أو غير ذلك.

ويقول تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)، وهذه المودة والرحمة تختص بها الزوجة، سواء كانت مسلمة أو كتابية.

.4غير المسلم مختلف وليس ضد

يتعامل الإسلام مع غير المسلم باعتباره المختلف وليس الضد، والفرق بينهما كبير؛ فالتعامل مع الآخر على أنه عدو يقتضي قطع العلاقات، أما التعامل مع المختلف يتعين تحديد وجه الاختلاف، مع بقاء العلاقات الإنسانية في أحسن حال، لذلك يحدد الإسلام موضع الاختلاف بين المسلم والآخر فيقول تعالى: (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ)، وهنا يعلن القرآن بوضوح أن اتفاق المسلمين مع غيرهم في العقيدة مستحيل، ولن نتفق أو نرتضي جميعًا عقيدة واحدة.

أما في المعاملات الإنسانية فيقول تعالى: (لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)، والبر هو الإحسان، وهو أكبر من العدل. ولاحظ هنا أن الصيغة ليست أمرًا بالبر؛ لأن بر غير المعادي هو طبيعة إنسانية، لا تحتاج إلى أمر، وإنما جاءت الآية برفع النهي والحرج عن البر لتأخذ الأنفس وضعها الطبيعي من البر وحسن التعامل، (لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ.(

.5المودة

قد شهدت السنة النبوية تعاملات ودية مع غير المسلمين تكشف عن حصيلة العلاقة الرحبة والودية مع غير المسلمين.

مثلًا أبو البختري، الذي سعى في نقض صحيفة حصار بني شعب، فحين رآه النبي في صفوف المشركين في بدر يُقاتِل المسلمين، نهى عن قتله وقال: "من لقي أبا البختري فلا يقتله".(٧(

والنجاشي، فقد كان على النصرانية، وامتدحه النبي بقوله: "إن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد"(٨)، بل جعله وليًا لأم حبيبة، بنت أبي سفيان، لتزويجها له؛ فقد كانت أم حبيبة من المهاجرات إلى الحبشة، وتنصّر زوجها (عبيد الله بن جحش)، ثم فارقته، فتزوجها رسول الله، وجعل النجاشي وليًا لها، رغم أنه كان الطبيعي أن يجعل جعفر بن أبي طالب وليها، فهو زعيم الوفد، وابن عم رسول الله، أو أن يجعل الولاية لأي من المهاجرين من بني أمية، إلا أنه قصد تكريم النجاشي وتعظيم شأنه، فجعله هو وليها.(٩(

وروى البخاري أنه: "كان غلامٌ يهوديًا يخدم النبي، فمرض، فأتاه النبي يعوده".(١٠(

وكانت صفية بنت حيي، زوج النبي، لها أخ يهودي، وأوصت له بثلث مالها".(١١(

وقال تعالى: (الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ.(

يقول سيد قطب: "إن الإسلام لا يكتفي بأن يترك لغير المسلمين حريتهم الدينية ثم يعتزلهم، فيصبحوا في المجتمع الإسلامي مجفوين معزولين -أو منبوذين- إنما يشملهم بجو من المشاركة الاجتماعية، والمودة، والمجاملة والخِلطة. فيجعل طعامهم حِلًا للمسلمين وطعام المسلمين حِلًا لهم كذلك .ليتم التزاور والتضايف والمؤاكلة والمشاربة، وليظل المجتمع كله في ظل المودة والسماحة".(١٢(

وصية الرسول:

الآن تصعد روح آخر رسل الله إلى بارئها، وينقطع اتصال السماء بالأرض، ويتوقف صوت الله في البرية، الآن يحتضر رسول الله، تلك اللحظات التي يتكشف فيها كل وهم وغش، ويتساقط كل قناع، وتتجلى فيها الحقيقة، فيظهر للمحتضر فقط ما شغل همَّهُ وملأ فؤاده، وما سوى ذلك يتوارى، عندئذ يمسك المحتضر بعقارب الساعة ليوصي أهله بالأهم وليس المهم.. في تلك اللحظات أوصى رسول الله خليفته بأهل الذمة، فقال: "أوصيه بذمة الله، وذمة رسوله، أن يُوفى لهم بعهدهم، وأن يُقاتل من ورائهم، ولا يُكلفوا إلا طاقتهم".(١٣(

إن الإنسان ليقف مذهولًا أمام تلك الوصية؛ فلم يكن النبي أول ولا آخر من يدعو للتسامح ونشر السلام، لكن المبهر أن تشغله القضية حتى يوصي بها لحظة وفاته، يتذكر ويوصي بقوم قد عاش حياته كلها يدعوهم إلى الإسلام، وهم قد كفروا برسالته، وكذَّبوه، ولم ينصروه، اليوم وفي هذه اللحظة العصيبة يذكرهم ويوصي بهم؟ أليس في النفس شيء ممن كذَّبوك؟!

القرآن المُفترى عليه (سيد قطب نموذجًا(

يقول البعض :حين نرى عالمًا صالحًا مسلمًا، نعتبره نتاج التربية الإسلامية، وننسبه للقرآن، لكن حين نرى إرهابيًا، لا ننسبه للإسلام. في حين أن كلاهما يستدل بالقرآن نفسه! لماذا نعتبر ابن سينا ممثلًا للحضارة الإسلامية وليس أسامة بن لادن؟!

ويقول آخرون :معاني القرآن سائلة وفضفاضة، فحين يقرؤه الإرهابي، يزداد إرهابًا، وحين يقرؤه الصالح يزداد صلاحًا، إذن فالقرآن لا هو هادٍ ولا مصلح للنفوس!

ويقول آخرون :السلفيون والمتشددون والإرهابيون أكثر اتساقًا مع القرآن، ويكتفون بتفسير آياته كما هي، أما المقاصديون فيضيفون معانٍ حداثية ومعاصرة على القرآن!

ويقول آخرون :لا يوجد شيء اسمه (الإسلام)، وإنما هي مدارس شتى، ومذاهب متفرقة، ولن نستطيع تحديد أيها صحيح وأيها باطل، فالتمييز بينهم مستحيل، ولكل مذهب أدلته المنسوبة إلى النص!

منبع كل هذه التخبطات أن البعض لا يعلم آليات التفسير، وضوابط التأويل، وقواعد اللغة، فحين يرى اختلافات حول تفسير القرآن، لا يستطيع تمييز التفسير الصحيح عن الباطل، ويعتقد جهلًا أن كل التفسيرات متساوية في الدرجة، وتفسير ابن سينا مثل تفسير أسامة بن لادن، لكل منهما أدلته من القرآن!

لذلك ندرس هنا نموذجًا محددًا، وهو تفسير (في ظلال القرآن) لسيد قطب، لنبحث في التفسير عن سؤال محدد: هل آراء سيد قطب المنطقية الأخلاقية المستنيرة نابعة منه هو، أم نابعة من القرآن؟

وهل أفكاره الإرهابية نابعة منه هو، أم نسبها إلى القرآن؟

وأسباب اختيار هذا التفسير تحديدًا:

–سيد قطب شخصية محورية ومؤثرة بقوة في العالم العربي؛ إذ تستند إليه أغلب الجماعات الإرهابية عبر العالم، فكتابه (في ظلال القرآن) من الكتب النادرة التي انتقلت أفكاره النظرية إلى واقع عملي ومؤثر وحي إلى يومنا هذا.

–تفسير (في ظلال القرآن) متناقض؛ إذ يمتليء بروحانيات صافية، وإعجاز قرآني راقٍ، وأسلوب عذب، وأدَّعي أنه لا يوجد تفسير للقرآن عبر كل العصور يقترب من رونق وجمال وعذوبة تفسير الظلال، فهو أرقى التفسيرات روحانيًا بلا منافس.

لكن في نفس الوقت يحوي تفسير الظلال آراءً إرهابية كارثية وصادمة، وإذا ثبت نسبتها إلى القرآن، فهي كافية وحدها للصد عن الإسلام، وإذا طُبقت على الواقع، فهي كافية لهدم الوطن العربي واستمرار الحروب الأهلية بلا نهاية!

وليس مجال بحثنا هنا تقييم آراء سيد قطب وتحديد صوابها وخطأها، بل مجال بحثنا هو تحديد: أي هذه الآراء استقاها سيد قطب من القرآن؟ أم نسبها هو إلى القرآن؟

هل تأثر سيد قطب بالقرآن؟ أم أثر في القرآن؟

أولًا: سيد قطب متأثرًا بالقرآن

القبح لا يُواجَه بالقبح

يقف سيد قطب عند قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ.(

ويقول: "هو يأمر المسلمين ألا يتخذوا بطانة من هؤلاء. ولكنه لا يحرّضهم على مقابلة الغل والحقد والكراهية والدس والمكر بمثلها. إنما هي مجرد الوقاية للجماعة المسلمة وللصف المسلم .. أما المسلم فبسماحة الإسلام يتعامل مع الناس جميعًا، وبنظافة الإسلام يعامل الناس جميعًا، وبمحبة الخير الشامل يلقى الناس جميعًا، يتقي الكيد ولكنه لا يكيد، ويحذر الحقد ولكنه لا يحقد"(١.(

ويقف عند قوله تعالى: (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ.(

ويقول: "إن الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع وتعف، فلا يبيح الغدر في سبيل الغلب، وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد، ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة.

إن النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ، ومتى استحلت لنفسها وسيلة خسيسة، فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة، وليس مسلمًا من يبرر الوسيلة بالغاية"(٢.(

هذه التربية الأخلاقية الهادئة المهذبة هي تربية القرآن وتأثيره ونتاجه، لم ينسبها سيد قطب إلى القرآن، بل أجبره النص القرآني عليها.

الدين إيمان وعمل

قال تعالى: (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ.(

يقول سيد قطب: "وينتظر من يسمع هذا الاستفهام ليرى من هو هذا الذي يكذب بالدين، وإذا الجواب: (فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)! وقد تكون هذه مفاجأة بالقياس إلى تعريف الإيمان التقليدي. ولكن هذا هو لباب الأمر وحقيقته. إن حقيقة التصديق بالدين ليست كلمة تقال باللسان، إنما هي تحول في القلب يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه في البشرية ، المحتاجين إلى الرعاية والحماية. والله لا يريد من الناس كلمات. إنما يريد منهم معها أعمالًا تصدقها، وإلا فهي هباء، لا وزن لها عنده ولا اعتبار"(٣.(

الشورى منهج حياة

قال تعالى: (وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ(

يقول سيد قطب: "التعبير يجعل أمرهم كله شورى، ليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة. وهو نص مكي، كان قبل قيام الدولة الإسلامية. فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة في حياة المسلمين. إنه طابع الجماعة الإسلامية في كل حالاتها، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم فيها بعد"(٤.(

مودة غير المسلمين

قال تعالى: (الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ.(

يقول سيد قطب: "إن الإسلام لا يكتفي بأن يترك لغير المسلمين حريتهم الدينية ثم يعتزلهم، فيصبحوا في المجتمع الإسلامي مجفوين معزولين – أو منبوذين – إنما يشملهم بجو من المشاركة الاجتماعية، والمودة، والمجاملة والخلطة. فيجعل طعامهم حِلًا للمسلمين وطعام المسلمين حِلًا لهم كذلك .ليتم التزاور والتضايف والمؤاكلة والمشاربة، وليظل المجتمع كله في ظل المودة والسماحة"(٥.(

إنكار تأثير السحر

يقول سيد قطب: "السحر لا يغير من طبيعة الأشياء، ولا ينشئ حقيقة جديدة لها، ولكنه يخيل للحواس والمشاعر بما يريده الساحر. وهذا هو السحر كما صوره القرآن في قصة موسى: (قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ.(

وهكذا لم تنقلب حبالهم وعصيهم حيات فعلًا، ولكن خُيِّل إلى الناس أنها تسعى، ثم انكشفت الحقيقة حين انقلبت عصا موسى بالفعل حية فلقفت الحبال والعصي المزورة المسحورة. وهذه هي طبيعة السحر كما ينبغي لنا أن نسلم بها"(٦.(

ضد الغلو في الدين

يقف سيد قطب عند قوله تعالى: (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا.(

ويقول: "وإنه لما يستحق الانتباه هنا أن النهي الذي أعقب الأمر بالاستقامة، لم يكن نهيًا عن القصور والتقصير، إنما كان نهيًا عن الطغيان والمجاوزة. وذلك أن الأمر بالاستقامة وما يتبعه في الضمير من يقظة وتحرج قد ينتهي إلى الغلو والمبالغة التي تحول هذا الدين من يسر إلى عسر. والله يريد دينه كما أنزله، ويريد الاستقامة على ما أمر، دون إفراط ولا غلو، فالإفراط والغلو يُخرِجان هذا الدين عن طبيعته كالتفريط والتقصير. وهي التفاتة ذات قيمة كبيرة"(٧.(

***

سيد قطب في هذه التفسيرات السابقة لم يخترع هذه المعنى، أو يستفدها من تجاربه الحياتية، أو التاريخ، أو العلم التجريبي، أو نقلًا عن علماءه، بل استقاها وتعلمها من القرآن نفسه، النص القرآني أجبره على هذه المعاني ووجهه إليها. كأنه اكتفى بتفسير كلمات الآيات، فزُرعت هذه المعاني الأخلاقية المنطقية في عقله تلقائيًا.

ثانيًا: سيد قطب مؤثرًا في القرآن

هل نحن مسلمون؟!

يقف سيد قطب عند قوله تعالى على لسان يوسف: (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)، ويتساءل: لماذا طلب يوسف الحكم في حين أن النبي نهى عن طلب الحكم؟

ويجيب: " لقد نشأ هذا الحكم في مجتمع مسلم ليُطبَّق في هذا المجتمع وليعيش في هذا الوسط وليلبي حاجة ذلك المجتمع. فهو من ثم حكم إسلامي جاء ليُطَبَق في مجتمع إسلامي. وقد نشأ في وسط واقعي ولم ينشأ في فراغ مثالي .وهو من ثم لا يُطبَّق ولا يصلح ولا ينشئ آثاره الصحيحة إلا إذا طُبق في مجتمع إسلامي. إسلامي في نشأته، وفي تركيبه العضوي، وفي التزامه بشريعة الإسلام كاملة. وكل مجتمع لا تتوافر فيه هذه المقوّمات كلها يعتبر (فراغا (بالقياس إلى ذلك الحكم، لا يملك أن يعيش فيه، ولا يصلح له، ولا يصلحه كذلك"(٨.(

ثم يسقط هذه الفكرة على مجتمعنا ويقول عنه: "إن هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه ليس هو المجتمع المسلم، ومن ثم لن يُطبَّق فيه النظام الإسلامي ولن تُطبَّق فيه الأحكام الفقهية الخاصة بهذا النظام"(٩.(

ويضيف: " إن البشرية اليوم بجملتها تزاول رجعية شاملة إلى الجاهلية التي أخرجها منها آخر رسول، وهي جاهلية تتمثل في صور شتى:

بعضها يتمثل في إلحاد بالله .. وبعضها يتمثل في اعتراف مشوه بوجود الله سبحانه .. وبعضها يتمثل في اعتراف صحيح بوجود الله سبحانه، وأداء للشعائر التعبدية، مع انحراف خطير في تصور دلالة الشهادتين، ومع شرك كامل في الدينونة والاتباع والطاعة. وذلك كجاهلية من يسمون أنفسهم (مسلمين (

ويظنون أنهم أسلموا واكتسبوا صفة الإسلام وحقوقه بمجرد نطقهم بالشهادتين وأدائهم للشعائر التعبدية مع سوء فهمهم لمعنى الشهادتين ومع استسلامهم ودينونتهم لغير الله من العبيد. وكلها جاهلية، وكلها كفر بالله كالأولين، أو شرك بالله كالآخرين.

إن رؤية واقع البشرية على هذا النحو الواضح تؤكد لنا أن البشرية اليوم)بجملتها) قد ارتدت إلى جاهلية شاملة، وأنها تعاني رجعية نكدة إلى الجاهلية التي أنقذها منها الإسلام"(١٠.(

أولًا :بخصوص السؤال الذي سأله: لماذا طلب يوسف الولاية رغم نهى النبي؟

فيوسف لم يطلبها، بل على العكس، فقد مكَّن الملك يوسف من الحكم،)وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)، وبذلك فقد تم اختيار يوسف بالفعل، ولم يعرض نفسه، لكن يوسف اختار مهمة محددة أدنى من المعروض عليه، وقال: (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ)، أي مكّني من إدارة الماليات فقط.

كما أن نهي النبي عن طلب الولاية معلل بالنهي عن الطمع في السلطة للمصلحة الشخصية، أما من طلبها لمصلحة الناس، فلا مانع من طلبها وتوليته، لذلك ولَّى النبي زياد بن الحارث على قومه بعد أن طلب الولاية.

ثانيًا :اتهام سيد قطب للمجتمع بالجاهلية والبعد عن الإسلام هو اتهام صريح وواضح، لا يحتمل تأويلًا، ولا مبالغة.

كما أنه اتهام بلا ضابط ولا حاكم؛ فما معايير هذا الحكم؟! وما الحد الفاصل بين المجتمع الإسلامي والجاهلي؟! وما الحكم الشرعي الذي إن طبقه المجتمع أصبح مسلمًا؟! وما الحكم الذي إن لم يطبقه أصبح جاهليًا؟! ومنذ متى والمجتمع جاهلي؟! وما موقف المسلمين في هذا المجتمع، هل كل البشر كفار ومصيرهم النار؟! ومن لديه سلطة الحكم بإيمان أو كفر المجتمع كله؟!

ثالثًا :استنتاج أن المجتمع جاهلي ومن ثم لا يُطبق فيه أحكام الشرع، هو رأي لا يستند على أي قاعدة من أصول الفقه، ولا القرآن، ولا السنة، فتعجب كثيرًا من الاستطراد الذي ساق سيد قطب من قول يوسف إلى كل هذه النتائج الكارثية، فلا نعرف عالمًا واحدًا قال بهذا الرأي الشاذ، وإنما هو رأي سيد قطب الشخصي الخاص!

هل غير المسلمين آمنين؟

يقول سيد قطب: "ينقسم العالم في نظر الإسلام إلى قسمين اثنين لا ثالث لهما:

الأول: دار الإسلام، وتشمل كل بلد تُطبق فيه أحكام الإسلام، وتحكمه شريعة الإسلام.

الثاني: دار الحرب، وتشمل كل بلد لا تُطبق فيه أحكام الإسلام، ولا يُحكم بشريعة الإسلام، كائنًا أهله ما كانوا، سواء قالوا : إنهم مسلمون، أو إنهم أهل كتاب، أو إنهم كفار. فالمدار كله في اعتبار بلد ما (دار حرب) هو عدم تطبيقه لأحكام الإسلام"(١١.(

ثم يرسم ملامح العلاقة بدار الحرب فيقول: "فأما (دار الحرب) فليس من حقها ولا من حق أهلها أن يتمتعوا بما توفره عقوبات الشريعة الإسلامية من ضمانات؛ لأنها ابتداء لا تطبق شريعة الإسلام، ولا تعترف بحاكمية الإسلام، وهي بالنسبة للمسلمين ليست حمى، فأرواحها وأموالها مباحة لا حرمة لها عند الإسلام، إلا بعهد من المسلمين حين تقوم بينها وبين دار الإسلام المعاهدات"(١٢.(

ويضيف: "فأما دم أهل دار الحرب فهو مباح – ما لم تقم بينهم وبين أهل دار الإسلام معاهدة – وكذلك مالهم"(١٣.(

أولًا :بهذه المنهجية يَعتبر سيد قطب أن الأصل في العلاقة بين المسلمين وغيرهم هي الحرب، وهدر الدم واستباحة الأموال، إلا لو قامت معاهدات تمنع ذلك!

وبالتالي فالحرب ليست أمرًا طارئًا لسبب دعى إليها، وليست دفاعًا عن النفس، بل الحرب هي الوضع الأصلي والتلقائي للتعامل مع غير المسلمين!

فإن وُجدت دولة غير مسلمة لم تتعامل من قبل مع المسلمين، فأول رد فعل تجاهها، وأول تعامل معها من قِبلنا هي هدر دماءهم واستباحة أموالهم، بلا أي سبب!

ثانيًا :البلاد الإسلامية الحالية لا ينطبق عليها تعريف الدولة الإسلامية عند سيد قطب، وبالتالي فحتى بلادنا فهي في نظره دار حرب، ودماؤنا وأموالنا مهدرة ومستباحة في نظره!

ثالثًا :ما يهمنا هنا أن هذا التقسيم بهذه الشروط ليس له أي علاقة بالنص القرآني لا من قريب ولا من بعيد، وسيد قطب نفسه لم يكتبه في صدد تفسير أي نص أصلًا، وإنما كتبه في بداية تفسير سورة المائدة، كأنه يسرد تصوره الشخصي قبل البدء في التفسير!

حكم العالم كله

يقول سيد قطب: "لم يكن من قصد الإسلام قط أن يُكرِه الناس على اعتناق عقيدته، ولكن الإسلام ليس مجرد عقيدة.

إن الإسلام إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد. فهو يهدف ابتداءً إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الإنسان للإنسان، ثم يطلق الأفراد بعد ذلك أحرارا في اختيار العقيدة التي يريدونها بمحض اختيارهم، ولكن هذه الحرية ليس معناها أن يجعلوا إلههم هواهم أو أن يختاروا بأنفسهم أن يكونوا عبيدًا للعباد،، وأن يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله.

إن النظام الذي يحكم البشر في الأرض يجب أن تكون قاعدته العبودية لله وحده، وذلك بتلقي الشرائع منه وحده، ثم ليعتنق كل فرد ما يعتنقه من عقيدة . وبهذا يكون الدين كله لله. أي تكون الدينونة والخضوع والاتباع والعبودية كلها لله. إن مدلول الدين أشمل من مدلول العقيدة.

والذي يدرك طبيعة هذا الدين – على النحو المتقدم – يدرك معها حتمية الانطلاق الحركي للإسلام في صورة الجهاد بالسيف – إلى جانب الجهاد بالبيان –ويدرك أن ذلك لم يكن حركة دفاعية، بالمعنى الضيق الذي يفهم اليوم من اصطلاح (الحرب الدفاعية)، كما يريد المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام هجوم المستشرقين الماكر أن يصوروا حركة الجهاد في الإسلام"(١٤).

أولًا :رغم أن هذا الخطاب يتحدث عن الإيمان، والكفر، والقتال، مما يعني أنه خطاب عقدي وفقهي، فالمفروض أن يتسم بالدقة والمنطقية والمصلحة، ويقوم على أدلة ونتائج. إلا أننا نجد خطاب سيد قطب شاعري وعاطفي واسترسالي، لذلك هو خطاب لا يمت بأي صلة للعقيدة والفقه!

ثانيًا :سيد قطب يرى أن البشر أحرار في اختيار عقيدة الإسلام، لكنهم غير أحرار في تطبيق أحكام الشرع عليهم، وبالتالي على المسلمين (بحق) أن يقاتلوا كل البشر ليحكموا العالم كله بأحكام الشرع، شاء من شاء وأبى من أبى!

من أين جاء سيد قطب بهذه التفرقة بين العقيدة الاختيارية والشريعة الإجبارية؟

ولماذا تغافل عن كل الآيات التي تقر السلام مع غير المسلمين، مثل) :وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا)، (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)، (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)؟!

ومن أين جاء بإلزام المسلمين بغزو العالم كله؟!

وألم يدرس نتاج ومآلات هذه الفكرة الكارثية على المسلمين وعلى العالم الذي سيشهد حروبًا دائمة بلا توقف؟!

إذن فسيد قطب هنا لم يتتبع معاني النص، ولا تاريخ السيرة، بل ساق خطته النابعة من تصوره الشخصي، وبالتالي فهو يحشر أفكاره بين الآيات، ويزرع رؤيته في صفحات السيرة!

ومرة أخرى لم يذكر سيد قطب كل هذا التصور وهو بصدد تفسير آية محددة أصلًا لننسب هذا التصور إلى القرآن، بل ذكره في بداية سورة الأنفال، باعتباره تصوره الشخصي!

لا سلام بعد الآن!

في بداية سورة التوبة، يقول سيد قطب: "إن المهزومين في هذا الزمان أمام الواقع البائس لذراري المسلمين – الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان – وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على أصل الجهاد في الإسلام، يحاولون أن يجدوا في النصوص المرحلية مهربًا من الحقيقة التي يقوم عليها الانطلاق الإسلامي في الأرض لتحرير الناس كافة من عبادة العباد، وردهم جميعًا إلى عبادة الله وحده، وتحطيم الطواغيت والأنظمة والقوى التي تقهرهم على عبادة غير الله، والخضوع لسلطان غير سلطانه، والتحاكم إلى شرع غير شرعه.

ومن ثم نراهم يقولون مثلًا: إن الله سبحانه يقول: (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ.(

ويقول: (لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ.(

ويقول: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ.(

ويقول عن أهل الكتاب: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ.(

فالإسلام إذن لا يقاتل إلا الذين يقاتلون أهل دار الإسلام في داخل حدود هذه الدار أو الذين يهددونها من الخارج! وأنه قد عقد صلح الحديبية مع المشركين. وأنه قد عقد معاهدة مع يهود المدينة ومشركيها!

وهو سوء ظن بالإسلام وسوء ظن بالله – سبحانه! – تمليه الهزيمة أمام الواقع البائس النكد الذي يواجههم، وأمام القوى العالمية المعادية التي لا طاقة لهم بها في اللحظة الحاضرة!

إن هذه النصوص التي يلتجئون إليها نصوص مرحلية تواجه واقعًا معينًا، وهذا الواقع المعين قد يتكرر وقوعه في حياة الأمة المسلمة. وفي هذه الحالة تطبق هذه النصوص المرحلية؛ لأن واقعها يقرر أنها في مثل تلك المرحلة التي واجهتها تلك النصوص بتلك الأحكام. ولكن هذا ليس معناه أن هذه هي غاية المنى وأن هذه هي نهاية خطوات هذا الدين، إنما معناه أن على الأمة المسلمة أن تمضي قدمًا في تحسين ظروفها وفي إزالة العوائق من طريقها حتى تتمكن في النهاية من تطبيق الأحكام النهائية الواردة في السورة الأخيرة، والتي كانت تواجه واقعًا غير الواقع الذي واجهته النصوص المرحلية.

إن النصوص الأخيرة تقول في شأن المشركين: (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.(

وتقول في شأن أهل الكتاب: (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)"(١٥).

أولًا :تعبيرات (نصوص مرحلية) و(أحكام نهائية) ليس لها معنى إلا أنها آيات منسوخة، أو معطلة، أو يجوز مخالفتها، أو يجوز تجاوزها، على حساب (الأحكام النهائية.(

وبهذه الطريقة حكم سيد قطب على مئات الآيات في القرآن التي تتحدث عن السلم، والتعاهد، والمودة، والقيم الأخلاقية مع غير المسلمين، حكم عليها بالحذف والإلغاء! فهي دعوة خطيرة وانقلابية!

ويمكن لأي أحد اختيار آيات من القرآن وادعاء أنها نسخت باقي آيات القرآن بكل سهولة وفوضى! وبالتالي يصبح لكل منا قرآنه الخاص به!

ثانيًا :الآيات التي ادَّعى سيد قطب نسخها هي أصلًا آيات غير قابلة للنسخ أو التعطيل أو التجاوز، مثلًا قوله تعالى) :وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)، فلا يمكن أن تُنسخ لأنها تحوي خبرًا، (اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)، فيستحيل أن يصبح الله يحب المعتدين!

ثالثًا :دعوى النسخ تقتضي شرطين:

أن يخالف الناسخ المنسوخ؛ مثل الأمر بالصلاة تجاه المسجد الأقصى، ثم الأمر بالصلاة تجاه المسجد الحرام، فلا يمكن العمل بهما معًا، إذن فأحدهما ناسخٌ للآخر. أما هذه الآيات، فأحدها يتحدث عن قتال الخونة، والأخرى تتحدث عن مسالمة المسالمين، فأين التعارض؟!

لإثبات وقوع النسخ نحتاج دليلًا يقينيًا نقليًا من القرآن أو السنة يقضي بأن هذه الآية نسخت غيرها.

لا يعنينا هنا إثبات خطأ سيد قطب، بل ما يعنينا أنه لم يستدل بأي دليل على ادعاء النسخ الخطير هذا، واكتفى فقط بأن سورة التوبة من أواخر ما نزل من القرآن!!

فقط بما أن هذه السورة نزلت بعد تلك، إذن فأحكامها تُعمَّم، وتلغي كل السور السابقة!!

بهذه السهولة والاستخفاف أسقط مئات الآيات الثابتة القطعية!!

هل نستطيع القول إن القرآن هو الذي أملى هذه الأفكار على سيد قطب؟! أم هي أفكاره الخاصة، ثم اختار الآيات التي توافقه، ثم عممها على كل غير المسلمين، ثم أخفى الآيات المخالفة له، ثم قال: هذا هو قول القرآن؟!

أين الحل؟

يرسم سيد قطب خارطة الطريق للحل:

كيف نعود إلى الإسلام؟

يقول: "إن على هذه الطلائع أن تبدأ في دعوة البشرية من جديد إلى الدخول في الإسلام كرة أخرى، والخروج من هذه الجاهلية النكدة التي ارتدت إليها .

على أن تحدد للبشرية مدلول الإسلام الأساسي: وهو الاعتقاد بألوهية الله وحده، وتقديم الشعائر التعبدية لله وحده، والدينونة والاتباع والطاعة والخضوع في أمور الحياة كلها لله وحده.

وأنه بغير هذه المدلولات كلها لا يتم الدخول في الإسلام، ولا تحتسب للناس صفة المسلمين، ولا تكون لهم تلك الحقوق التي يرتبها الإسلام لهم في أنفسهم وأموالهم كذلك.

وأن تخلف أحد هذه المدلولات كتخلفها جميعًا، يخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية، ويصمهم بالكفر أو بالشرك قطعًا"(١٦.(

ويستوقفنا معنى: "الطاعة والخضوع في أمور الحياة كلها لله وحده"، فماذا يقصد بالخضوع لله وحده؟ هل يقصد عدم الشرك بالله؟

يقول: "إذا رُفعت في أي أرض وفي أي وقت شعارات ينطق باسمها الحكام والكهان، ويقررون باسمها ما لم يأذن به الله من الشرائع والقوانين والقيم والموازين والتصرفات والأعمال، فهذه هي الأصنام في طبيعتها وحقيقتها ووظيفتها! إذا رُفعت (القومية) شعارًا، أو رُفع (الوطن) شعارًا، أو رُفع)الشعب) شعارًا، أو رُفعت (الطبقة) شعارًا، ثم أريد الناس على عبادة هذه الشعارات من دون الله، وعلى التضحية لها بالنفوس والأموال والأخلاق والأعراض. بحيث كلما تعارضت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعليماته مع مطالب تلك الشعارات ومقتضياتها، نُحيت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعاليمه، ونُفّذت إرادة تلك الشعارات، كانت هذه هي عبادة الأصنام من دون الله"(١٧.(

ويوضح مقصده أكثر ويقول: "الجاهلية ليست فترة تاريخية، إنما هي حالة توجد كلما وُجدت مقوّماتها في وضع أو نظام، وهي في صميمها الرجوع بالحكم والتشريع إلى أهواء البشر، لا إلى منهج الله وشريعته للحياة. ويستوي أن تكون هذه الأهواء أهواء فرد، أو طبقة، أو أمة، فكلها – ما دامت لا ترجع إلى شريعة الله – أهواء، يشرع فرد لجماعة فإذا هي جاهلية. لأن هواه هو القانون، أو رأيه هو القانون، لا فرق إلا في العبارات! وتشرع طبقة لسائر الطبقات فإذا هي جاهلية. لأن مصالح تلك الطبقة هي القانون – أو رأي الأغلبية البرلمانية هو القانون – فلا فرق إلا في العبارات"(١٨.(

إذن فاللجوء للقانون المدني الوضعي، والدستور، والانتخابات، والبرلمانات، وقيم الوطنية، والقومية، بالنسبة لسيد قطب هي علامات الكفر والخروج من الملة والانسلاخ من الإسلام، وعلينا التخلص من كل هذه المفاهيم للرجوع إلى الإسلام!

كيف نعيد بناء الدولة؟

يقول: "لا بد أن يوجد المجتمع المسلم أولا بتركيبه العضوي الطبيعي فيكون هو الوسط الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي ويطبق، وعندئذ تختلف الأمور جدًا، وساعتها قد يحتاج ذلك المجتمع الخاص إلى البنوك وشركات التأمين وتحديد النسل، إلخ وقد لا يحتاج!

ذلك أننا لا نملك سلفًا أن نقدِّر أصل حاجته، ولا حجمها، ولا شكلها، حتى نشرّع لها سلفًا! كما أن ما لدينا من أحكام هذا الدين لا يطابق حاجات المجتمعات الجاهلية ولا يلبيها، ذلك أن هذا الدين لا يعترف ابتداءً بشرعية وجود هذه المجتمعات الجاهلية ولا يرضى ببقائها. ومن ثم فهو لا يعني نفسه بالاعتراف بحاجاتها الناشئة من جاهليتها ولا بتلبيتها كذلك.

وهذه الحركة لا بد أن تواجه الفتنة والأذى والابتلاء. فيُفتن من يُفتن ويرتد من يرتد، ويصدق الله من يصدقه فيقضي نحبه ويستشهد، ويصبر من يصبر ويمضي في حركته حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق، وحتى يمكّن الله له في الأرض، وعندئذ فقط يقوم النظام الإسلامي.

ومن ذا الذي يدرينا اليوم مثلا أن يكون الناس في مجتمع مسلم تُجبى فيه الزكاة وتُنفق في مصارفها، ويقوم فيه التراحم والتكافل بين أهل كل محلة، ثم بين كل أفراد الأمة، وتقوم حياة الناس فيه على غير السرف والترف والمخيلة والتكاثر، إلى آخر مقومات الحياة الإسلامية، من يدرينا أن مجتمعًا كهذا سيكون في حاجة إلى شركات تأمين أصلًا؟! وعنده كل تلك التأمينات والضمانات مع تلك الملابسات والقيم والتصورات؟! وإذا احتاج إلى نوع من التأمين فمن يدرينا أنه سيكون هو هذا النوع المعروف في المجتمع الجاهلي، المنبثق من حاجات هذا المجتمع الجاهلي وملابساته وقيمه وتصوراته؟! وكذلك من يدرينا أن المجتمع المسلم المتحرك المجاهد سيكون في حاجة إلى تحديد النسل مثلا؟ .. وهكذا"(١٩.(

أولًا :سيد قطب يدعو لتكوين فئة مسلحة تسيطر على الحكم، وتطبق الشريعة، وتعيد دخول الناس في الإسلام، وتغزو العالم لحكم الأرض كلها بالشريعة!

ثانيًا :يدعو سيد قطب لوقف كل مظاهر الدولة المدنية الحالية: الانتخابات، والبورصة، والبنوك، والبرلمانات، والقوانين، والدستور، دون أي التفات إلى مآل كل ذلك من انهيار للدولة، وتوقف للمصالح، وتضييق على العباد!

ثالثًا :سيد قطب يعرف جيدًا ما لا يريد، لكن ليس لديه أدنى فكرة عما يريد!

فهو يريد أن ننقلب تمامًا على كل الأوضاع الحالية، وننسلخ بالكلية من هذه الحياة المعاصرة، ونهاجر ونفارق تمامًا كل هذه المحدثات، ثم بعد ذلك نسأله: ماذا نفعل؟

فإذا به يعترف أنه لا يملك أي إجابة، ولا أدنى تصور عن وضع الدولة!

الوضع البائس حين نرى أتباع لسيد قطب يهجرون أهلهم، وعلمهم، ووظائفهم، وأوطانهم، ويتبعون منهجه، دون أي دراية بمصير هذا المنهج، فهم على ثقة بأن واضع هذا المنهج مؤكد لديه حلول، ويعرف ماذا يريد، لكن المؤسف أن سيد قطب نفسه لا يعرف ماذا سيحدث، ويقول: عندها (لعلنا)، و(ربما)، و(من يعرف)، (وما يدرينا!!(

رابعًا :مرة أخرى لا نشم رائحة للقرآن في حديث سيد قطب، فأين أدلته؟ وإلى ماذا يستند؟ فكل هذا الحديث مجرد خواطر شخصية، وأحلام طفل ساذج، لذلك لم يذكره عند تفسير آية، بل ذكره عقب تفسير سورة هود، وتحدث عن مفهوم العبادة عمومًا في تصوره الشخصي!

***

خلال كل هذه الأمثلة يتبين أن القيم الأخلاق والمنطقية والمصلحية المنسوبة إلى القرآن هي فعلًا صوت القرآن، هي حقًا مقاصده، ونستطيع بثقة ويقين أن نقول: القرآن أمر بالعدل، والإحسان، والصدق، والأمانة. هذه القيم ظاهرة في نصوصه وواضحة ومتسقة، يدركها كل عاقل بسهولة.

أما المفاهيم الإرهابية وغير الأخلاقية المنسوبة للقرآن، المتناثرة في أي تفسير كان، نستطيع بثقة أن نقول: هذه المفاهيم منسوبة زورًا إلى القرآن، مفتراة، لا هي دلالة النص، ولا تُنسب إليه. بل تُنسب إلى قائلها، فابحثوا عن أسبابها السياسية عند صاحبها.

ابتسموا للموت

بواسطة خالد باظه في 10ديسمبر ٢٠٢٠

للموت جلالٌ وقدسية وهيبة تقشعر منها الأجساد، لكن هذا الجلال ينقلب إلى رعب وهلع عند كثيرين، فيرعبهم تصور نهايتهم، ويرعبهم التفكير في آلام الموت، وتصور أنفسهم القبر، ويعذبهم تصور موتاهم في القبور!

ولهذا الرعب أسباب كثيرة وعميقة، لا ندَّعي إحاطتها، لكننا نكشف عن جانب منها، وهو الجهل بطبيعة الموت ومآل النفس؛ فهل الموت مؤلم؟ هل نشعر بأجسادنا داخل القبر؟ هل تفنى النفس بعد الموت أم تشعر وتعي؟

نحاول هنا الكشف عن حقيقة الموت ومآل النفس ووعيها، وبهذا الكشف لن تزول رهبة الموت، لكن نسعى أن يزول الخوف. فلا أطمع في الترغيب في الموت، بل أرغب في الاطمئنان النفسي والتقبل القلبي لعملية الانتقال.

حقيقة الدنيا

.1جسديًا ..

طبيعة الجسد البشري الضعف والعجز، أقل شيء يميته، يشل عضلاته، يمرضه ويؤلمه، كلنا نسير حاملين جثثنا على أكتافنا، وأصغر فيروس قادر على هدم هذا البنيان. تلك اللحظات التي نتعرى فيها أمام المرض مسلِّمين مستسلمين خاضعين مذلولين، هي لحظات ليست عنا ببعيد، ولسنا منها بمفر. الألم أحد أركان الحياة على الأرض.

.2نفسيًا ..

إن تركت نفسك للحياة تأخذك حيث تريد، ستلطمك أمواج الملل واليأس والعجز والحزن. نحن نحاول جاهدين مرهقين مقاومة ذلك، إما بحبيب، أو إنجاز، أو مال، أو شهوة، يحجب تيار الملل لحظات ثم نعود لطبيعة الحياة مرة أخرى .المهم أن الوضع الطبيعي هو المعاناة، وكل فرحة هي خِلسة نسرقها من الدنيا.

يقول (ليوباردي): "السعادة ما هي الا انقطاعات خاطفة للحزن."

ويقول (آلان دو بوتون): "الحياة هي عملية متواصلة من استبدال قلقٍ بآخر"(١.(

.3أخلاقيًا ..

لا يتدخل الله في الكون، بل خلق كونًا يسير بقوانين ثابتة، وخلق بشرًا أحرارًا، ثم تركهم يفعلون ما يريدون حتى يأتي يوم الجزاء. وبالتالي فالعالم لا يسير طبقًا لخطة إلهية مرسومة ومحكمة، بل يسير بإرادات وخطط ومواقف البشر، لذلك أحداثه عبثية، وفوضوية، وفاسدة، وغير أخلاقية، والظلم هو السائد، والبقاء للأقوى، والسلطة لمن غلب. (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ .(

طبقًا لمنظمة الصحة العالمية، في عام ٢٠١٩ عانى ٦٩٠ مليون شخص من الجوع(٢!(

وخير الناس يسقطون أمام الطغيان قتلى؛ فقد قُتل سقراط، وجيفارا، وعمر، وعثمان، وعلي، والحسين، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن جبير، وأصحاب الأخدود!

ودُفن عمرو المعصوم حيًا، وصُلب غيلان الدمشقي وقُطعت أعضاءه، وصُلب الحلاج، ورُمي ابن المقفع في زيت مغلي، وجُلد أبو حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل في السجون!

وفشلت ثورات شريفة، وسقط وسيسقط أبطال وأبرياء!

يقول الأبنودي على لسان سقراط:

دنيا لا كانت يوم

ولا حتكون فى يوم كويسه

دنيا فى هيأة خنفسة

دنيا فسه

ما أتعس الإنسان

ما أسعد الحيوان(٣(

.4علميًا ..

يقول أفلاطون: تصوَّر نفسك في كهف وخلفك نيران وخلفها حيوانات تتحرك، وأمامك حائط، وأنت لا ترى الحيوانات في الخارج، بل ترى ظلها على الحائط، وتعتقد أن هذه الظلال هي الحيوانات ذاتها، لكن في الحقيقة غاية علمك ما هو إلا ظلال للواقع، صور تخيلية للمُثُل الحقيقية.

هكذا كل أفكار العقل البشري هي تخيلات وصور ذهنية تحاول أن تقترب من الواقع، لا أحد يدَّعي أنه لامس الحقيقة، أو عاين الحق، بل كلٌ يذوق من الحقيقة قدر تخيله المحصور بأدواته المعرفية المحدودة.

فلكل عقل تصور وتخيل لله، الملائكة، الشيطان، العدل، الوعي، لكن لا أحد يعلم حقيقة هذه الأشياء كما هي عليه.

بل حتى الملموسات الواقعة بين أيدينا، حين ننظر إليها بالميكروسكوب يهولنا ما نراه، وندرك أننا لم نكن نعرف حقيقتها من قبل، وما يدرينا أن توجد مستويات أعمق وأغرب لحقيقة الأشياء؟!

يقول الغزالي: "لا يبعد أيها العاكف في عالم العقل أن يكون وراء العقل طور آخر يظهر فيه ما لا يظهر في العقل، كما لا يبعد كون العقل طورًا وراء التمييز والإحساس تنكشف فيه غرائب وعجائب يقصر عنها الإحساس والتمييز"(٤).

ولما كانت هذه هي حقيقة الدنيا، تكاثرت آيات القرآن المحقرة من الدنيا، فقال تعالى:

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ).

وتذوق تعبير: (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ)، فتسمية (الحياة) في الدنيا هو مجرد مجاز وتشبيه، كأننا أمام رجل لا يأكل إلا رملًا، فنعطيه طعام البشر، ونقول: هذا هو الطعام، وما قبل ذلك لم يكن طعامًا أصلًا!

(يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ).

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا).

أما الآخرة فهي على العكس تمامًا؛ فحياة أبدية بلا انقطاع ولا مرض ولا ألم.

وبعد الموت تتكشف الحقائق كما هي ونشاهد عين اليقين، (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ).

وبعد الموت يتجلى العدل التام الكامل وميزان القسط، (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ).

وبذلك يتبين أن الموت هو البوابة التي تخلصنا من سجن الجهل، والألم، والنقص، والحزن، والظلم، لننتقل إلى عالم رحب من العلم التام، والسعادة الأبدية، والعدل الكامل.

يقول ابن سينا: "يجب على العاقل أن يتوحش من النقصان ويأنس بالتمام، ويطلب كل ما يتممه ويكمِّله ويشرِّفه ويعلي منزلته، ويثق بأن الجوهر الشريف الإلهي إذ تخلص من الجوهر الكثيف الجسماني فقد صعد العالَم الأعلى، وسعد وعاد إلى ملكوته، وقرب من بارئه، وفاز بجوار رب العالمين، وخالطته الأرواح الطيبة من أشكاله وأشباهه"(٥).

حقيقة الموت

يدرك الإنسان تمايزًا ومفارقةً بين الجسد والروح/ النفس، فمهما تغيَّر شكل الجسد وأعضاءه وماتت خلاياه، يظل الإنسان يدرك وجود ذات ثابتة، واعية، عاقلة، مدرِكة، ذات إرادة مستقلة. هذه النفس هي جوهر مستقل عن الجسد، لا تموت بموته، ولا تفنى بفناءه.

صحيح الوعي بالنفس مُركَّب في المخ، لكن طبيعة الوعي التي تدرك الذات، والمشاعر، والعلوم، والفنون، والأخلاق، مغايرة عن طبيعة المادة.

ويقدِّم ابن سينا تجربةً ذهنية لتصور مفارقة النفس عن الجسد، فيقول :افترض أنك معلَّقٌ في فضاء لا يخضع للجاذبية، ولا لملامسة المادة، ولا يوجد ضوء أو برودة أو حرارة أو ضغط أو حركة هواء، ولا توجد جهات، عندئذ هل لا يزال شعورك بالأنا موجود؟

رغم أنك لا تسمع ولا ترى ولا تحس بشيء، أي أن الخلايا الحسية للجسد جميعها معطلة، لكن يبقى هناك جوهر وكيان يقول: أنا أشعر بذاتي، بوجودي، بنفسي. هذه هي النفس أو الذات أو الأنا المنفصلة عن الجسد.

وحقيقة الموت أن الجسد يموت إن فقدت أعضاءه الحيوية قدرتها على العمل، أما النفس فهي لا تعتمد أصلًا على هذه الأعضاء، وهي منفصلة عن الجسد، فهي تنتقل من عالم الدنيا إلى عالم آخر، مجرد انتقال.

وهو ما اتفقت عليه الديانات السماوية: الإسلام والمسيحية وبعض فرق اليهودية، والديانات الوضعية: الهندوسية، والزرادشتية، والفلاسفة: سقراط، وأفلاطون، وأرسطو.

يقول ابن سينا: "الذي يخاف الموت هو الجاهل به وبذاته. وحقيقة الموت هي مفارقة النفس البدن، وليس في هذه المفارقة فساد للنفس"(٦.(

ويقول الغزالي: "الموت هو انتقال من عالم إلى عالم .. أي ليس في الموت إلا تبديل منزل"(٧.(

ويقول ابن القيم: "موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها"(٨.(

هل الموت مؤلم؟

يعتقد كثيرون أن للموت آلام وسكرات عظيمة، سيذوقها كل إنسان حتمًا، بدليل قوله تعالى: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)، حتى أن النبي ذاقها وتألم قبل الوفاة وقال: "إن للموت سكرات"(٩.(

السؤال عن الألم لحظة الوفاة هو سؤال ينقسم إلى جزئين:

هل يتألم الجسد لحظة الوفاة؟

بالنسبة للجسد فلحظة الموت هي لحظة وقوف المخ عن العمل، وبالتالي فقدان الجسد للوعي والإحساس، لذلك لا معنى لأي آلام جسدية لحظة الوفاة.

وقد يموت إنسان وهو نائم أو في غيبوبة أو تحت تأثير البنج، لذلك لا يشعر الجسد بأي شيء.

والتجارب المتكررة تثبت أن كثير من الموتى لحظة الوفاة لم تظهر عليهم أي أعراض جسدية تثبت تألمهم إطلاقًا، في لحظة واحدة نجد إنسانًا مال بجنبه، أو أغلق عينيه فقط، بكل سكون وهدوء، كأنه نام أو دخل في غيبوبة.

هل تتألم النفس لحظة الوفاة؟

هنا العلم لا يمدنا بمعلومات، ولا التجارب الحياتية، فلا يبقى سوى النص الإلهي الكاشف عن النفس بعد الموت.

قال تعالى: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)، والآية تقر أن الموت حق وواقع لا محالة. أما تعبير)سكرة الموت) يفيد أنه قد جاءت لحظة الموت المسكِرة للعقل، المغيّبة للوعي، لكن لا يثبت أو ينفي وجود ألم نفسي لحظة الوفاة.

وإن جمعنا تعبيرات القرآن عن لحظة الموت سنجده يقول: (سَكْرَةُ الْمَوْتِ)، (إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)، (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)، فتعبيرات: غفلة، حضور، تذوق، هي تعبيرات لا تشير إلى آلام وعذاب إطلاقًا.

وقال تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا)، فهو يسمي النوم: وفاة، والنوم يتم في عملية سلسة وهادئة بلا أي ألم.

والآلام التي شعر بها النبي قبل الوفاة هي آلام المرض؛ لأنه كان لا يزال حيًا ويشعر جسده بآلام المرض، فلا علاقة لها بلحظة الوفاة.

وبالتالي فالوحي الإلهي لا يثبت أو ينفي وجود آلام نفسية لحظة الوفاة، وإثباتها هو ما يحتاج إلى دليل.

يقول ابن سينا: "وأما من يظن أن للموت ألمًا عظيمًا غير ألم الأمراض التي ربما تقدمته وأدت إليه، فقد ظن ظنًا كاذبًا؛ لأن الألم إنما يكون بالإدراك، والإدراك إنما يكون للحي، والحي هو القابل أثر النفس، وأما الجسم الذي ليس فيه أثر النفس فإنه لا يألم ولا يحس، فإذًا الموت الذي هو مفارقة النفس للبدن لا ألم له؛ لأن البدن إنما كان يألم ويحس بالنفس وحصول أثرها فيه، فإذا صار جسمًا لا أثر فيه للنفس، فلا حس له ولا ألم له"(١٠).

مصير الجسد: قميص مخلوع

إن إحساس الجسد بالآلام وما يحيط به يتوقف على وجود خلايا عصبية تنقل إشارات كهربية إلى المخ ليحس. وبعد الوفاة فإن الخلايا الحسية وخلايا المخ تموت، بل تتحلل، ولذلك لا يحس الجسد بأي آلام، ولا يحس بالقبر الذي يحويه، ولا بظلمته. وقد لا يوجد الجسد في قبر أصلًا في حالة تعرض الجسد لحادث يمنع إعادة تجمعه.

وبالتالي فقد باتت علاقتنا بالجسد كعلاقة أحدنا بقميص خلعه وتركه ونساه.

وليس للجسد إلا رمزية التقدير والتقديس، فتغسيله ودفنه ليس لقيمة الجسد ذاته، بل تقديرًا للنفس التي رحلت عنه.

وقد مرَّ ابن عمر بجمجمة بادية من قبر فأمر رجلًا فواراها، ثم قال: "إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئًا، وإنما الأرواح التي تُعاقَب وتُثاب إلى يوم القيامة"(١١).

واختلف العلماء حول: هل تفنى الأجساد تمامًا، ثم تُخلق من جديد عند البعث، أم يبقى منها شيء يُبعث؟

والأدلة النقلية لا تفيد اليقين هنا، ولا ترجح احتمالًا منها.

مصير النفس: حياة ووعي

يعتقد البعض أن النفس بعد الموت تغيب في العدم، وتفقد الحياة والوعي والإدراك، لكن يثبت القرآن أن النفس بعد الموت تظل حية وواعية ومدركة.

قال تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)، صحيح هذا النعيم خاص بالشهداء، لكن محل الاستشهاد هنا أن نفسًا بشرية من الأنفس تحيا وتفرح وتستبشر، مما يعني أن الأنفس لا تُعدم.

وقال تعالى: (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)، فالمقصود بقوله: (فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ) الموت، والمقصود بـ(فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) هو إدراك النفس ووعيها بالحقيقة بعد الموت، بل شدة إدراكها ووعيها أكثر من ذي قبل.

وقال تعالى: (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)، فالعرض على النار بعد الموت وقبل يوم القيامة.

وقال تعالى: (ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي)، ووجه الدلالة: أن (ارجعي إلى ربك) تعني الموت، و(فَادْخُلِي فِي عِبَادِي) تعني مخاطبة النفس بعد الوفاة، والفاء تفيد التعقيب بعد الموت مباشرةً.

يقول الرازي: "قالوا : قوله تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ (يدل على أن النفوس لا تموت بموت البدن؛ لأنه جعل النفس ذائقة الموت، والذائق لا بد وأن يكون باقيًا حال حصول الذوق، والمعنى أن كل نفس ذائقة موت البدن، وهذا يدل على أن النفس غير البدن، وعلى أن النفس لا تموت بموت البدن"(١٢).

يقول الغزالي: "النفس لا تموت بموت البدن، ولا تفنى مطلقًا. وقد ترسَّخ في جميع عقائد أهل الإسلام هذا"(١٣).

ويقول الرازي: "النفوس باقية بعد موت الجسد"(١٤).

ويقول التفتازاني: "الظاهر من قواعد الإسلام أنه يكون للنفس بعد المفارقة إدراكات متجددة جزئية، واطلاع على بعض جزئيات أحوال الأحياء، سيما الذين كان بينهم وبين الميت تعارف في الدنيا"(١٥).

ويقول الغزالي: "ينكشف للمرأ بالموت ما لم يكن مكشوفًا له في الحياة، كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفًا له في النوم، والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته، وقد كان ذلك مسطورًا في كتاب مطوي في سر قلبه"(١٦).

بهذا المعنى فإن الصورة الأصدق للموت أنه تحرر للنفس من الجسد، إذ تخرج من هذا القيد، وهذه المحدودية، وهذا الحصر، لتسبح في عالم الأرواح، وتتنعم بصور أعظم من نعم الجسد، وتعرف أكثر من أدوات الجسد.

إن النفس تظل تخرج من رحم إلى رحم أوسع، ففي رحم الأم حياة، لكنها بالنسبة للدنيا محدودة ومحصورة ومقيدة، كذلك الدنيا بالنسبة للآخرة هي رحم، ولا يدرك ضيق الرحم إلا من خرج منه.

ولذلك وصف النبي الدنيا بقوله: "الدنيا سجن المؤمن"(١٧).

ويعبِّر ابن القيم عن هذا المعنى بوصف بليغ، إذ يعتبر الروح أسيرة الجسد، أُخذت من الآخرة، التي هي الوطن الأصلي للروح، فيقول:

وإن ضاقت الدنيا عليك بأسرها .. ولم يك فيها منزل لك يُعلم

فحي على جنات عدنٍ فإنها .. منازلنا الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو فهل تُرى .. نعود إلى أوطاننا ونسلم

ويعبِّر الأبنودي عن رؤية الميت الأوسع، فيقول:

ما أجمل نومه على كتوف اصحابك

تنظر صادقك من كدَّابك

تبحث عن صاحب أنبل وش

فى الزمن الغش

والرؤيه قصادي اتسعت

بصيت واحسب نفسى بين خلان

تعالوا شوفوا الدنيا من مكانى

حاشتنا أغراض الحياه عن النظر(١٨)

لقاء الله

قال تعالى: (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ).

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ).

(تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ).

)فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ.(

إن ما يجعل للوجود الإنساني قيمة ومعنى هي هذه العلاقة بالخالق/ الملك، فهذا الاهتمام والرعاية التي يوليه الله لهذا المخلوق الضعيف يمثل حبلًا سريًا يمده بالحياة.

وكل وعد بنعيم أو ثواب أو جنة ليتوارى أمام وعد أشرف، وثواب أعظم، ودرجة أقدس، وهي: لقاء الله.

هذا اللقاء الذي حارت فيه العقول وسكرت عنده الأذهان، هل هو رؤية لله؟ هل هو إدراك لوجوده؟ هل هو حس بحبه؟ هل هو علم بذاته يُقذف في العقل؟

إن اللغة هنا لا تجد لفظًا يعبر عن هذا المعنى بدقة، والعقل لا يستطيع تصور هذا اللقاء، والقلب يحتاج من يثبته ليستشعر ويتحمل هذا المعنى.

إن الإنسان ليتشوق للقاء حبيب أو عزيز، فيتحرق قلبه من الشوق، فيجتهد ليطوي الزمان والمكان ويرحل بأسرع وسيلة سفر. فكيف بلقاء الذات الإلهية الذي يجعل الإنسان يتحرق شوقًا ليطوي هذه الأيام الغابرة، ويشب على سلمٍ شاهق إلى أقاصي السماء ليكشف حجاب السحاب، فيسأل الله ويستأذنه في تعجيل اللقاء.

وصية:

قال سقراط في خطبته قبل الحكم عليه بالإعدام:

"ابتسموا للموت، واعلموا علم اليقين أنه يستحيل على الرجل الصالح أن يُصاب بسوء، لا في حياته ولا بعد موته، فلن يهمله الإله"(١٩.(

هل كل حديث للنبي وحي من الله؟

لا شك أن طاعة رسول الله واجبة وقوله حجة، لكن لأن النبي بشر، ففي سيرته يمتزج البشري بالديني، الاجتهاد الشخصي والوحي الإلهي، عادات قومه وأوامر ربه، فهل كل أفعال النبي وأقواله دينية واجبة الطاعة؟

للنبي أكثر من دور، فهو رسول الله، ورئيس الدولة، وقاضٍ، وإنسان عادي له عاداته الخاصة.

وبالتالي فأقواله وأفعاله الدينية قد قالها وفعلها بصفته رسول الله، وهي وحي من الله، وتشريع ديني، وملزِمة للمسلمين.

أما ما قاله بصفته رئيس الدولة، أو بصفة شخصية، فهي اجتهادات بشرية، ولا يُعد من الوحي ولا التبليغ ولا الرسالة، وبالتالي غير ملزِمة.

يقسّم #القرافي تصرفات النبي لأربعة أقسام: تصرفات بالرسالة، والفُتيا، والقضاء، والسياسة. ثم يقول: "فما فعله بطريق الإمامة، كقسمة الغنائم، وتفريق أموال بيت المال على المصالح، وإقامة الحدود .. فلا يجوز لأحدٍ الإقدام عليه إلا بإذن إمام الوقت الحاضر.

وما فعله بطريق الحكم (القضاء)، كالتمليك بالشفعة، وفسوخ الأنكحة والعقود، فلا يجوز لأحدٍ أن يقدِم عليه إلا بحكم الحاكم في الوقت الحاضر.

وأما تصرفه بالفتيا والرسالة والتبليغ، فذلك شرع يتقرر على الخلائق إلى يوم الدين، يلزمنا أن نتبع كل حكم مما بلغه إلينا عن ربه"(١).

ويقول #الدهلوي: "اعْلَم أن ما رُوي عن النبي، ودُوِّن في كتب الحديث على قسمين:

- أحدهما ما سبيله سبيل تبليغ الرسالة، وفيه قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾(٢)، منه علوم المعاد، وعجائب الملكوت، وهذا كله مستند إلى الوحي.

- وثانيهما ما ليس من باب تبليغ الرسالة، وفيه قول النبي: "إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم، فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي، فإنما أنا بشر"(٣)، فَمِنْهُ الطب، ومِنْه ما فعله النبي على سبيل العادة دون العبادة، وبحسب الاتفاق دون القصد، ومنه ما ذكره كما كان يذكره قومه"(٤).

ويقول #ابن_عاشور: "كل ما قاله أو فعله على سبيل التبليغ: كان ذلك حُكمًا عامًا على الثقلين إلى يوم القيامة. فإن كان مأمورًا به، أقدم عليه كل أحد بنفسه، وكذلك المباح. وإن كان منهيًا عنه، اجتنبه كل أحد بنفسه.

وكل ما تصرَّف فيه عليه السلام بوصف الإمامة: لا يجوز لأحد أن يُقدِم عليه إلا بإذن الإمام؛ لأن سبب تصرُّفه فيه عليه السلام بوصف الإمامة دون التبليغ يقتضي ذلك.

وما تصرَّف فيه بوصف القضاء: لا يجوز لأحد أن يُقدِم عليه إلا بحكم حاكم؛ لأن السبب الذي لأجله تصرّف فيه بوصف القضاء يقتضي ذلك"(٥).

ويقسِّم #محمود_شلتوت السنة إلى تشريعية وغير تشريعية أيضًا.

فيقول: "فأما غير التشريعية: فمنها الحاجات الإنسانية، والعادات والتجارب البشرية، والتدابير الإنسانية. وكل هذا ليس شرعًا يتعلق بطلب الفعل أو الترك.

أما التشريعية: فمنها التشريع العام، وهو ما يصدر عن النبي على وجه التبليغ بصفته رسول الله، كأن يبين مجملًا في الكتاب، أو يخصص عامًا، أو يبين شأنًا في العبادات، أو الحلال والحرام.

ومنها الخاص؛ فالنبي بجانب كونه رسول الله كان رئيسًا لجماعة المسلمين وقاضيًا، فما يصدر عنه بوصفه إمامًا أو قاضيًا، فهذا ليس تشريعًا عامًا، فلا يجوز الإقدام عليه إلا بإذن الإمام، وليس لأحد أن يفعل شيئًا منه من تلقاء نفسه بحجة أن النبي فعله أو طلبه.

ومن المفيد جدًا معرفة الجهة التي صدر عنها التصرف، وكثيرًا ما تخفى فيما يُنقل عن الرسول، ولا يُنظر فيه إلا من جهة أن الرسول فعله أو قاله أو أقره. ومن هنا نجد أن كثيرًا مما نُقل عن النبي صُور بأنه شرع أو دين، وسنة أو مندوب، وهو لم يكن في الحقيقة صادرًا على وجه التشريع أصلًا. وقد كثر ذلك في الأفعال الصادرة عنه بصفة البشرية، أو بصفة العادة والتجارب، أو بصفة الإمامة والقضاء، ومن ذلك تضطرب الأحكام"(٦).

وقد رأينا الصحابة تسأل النبي كثيرًا: "أهو وحي من الله أم الرأي والمشورة؟"، وحين يتبين أنه اجتهاد النبي الشخصي، قد يختلفون معه، كالخلاف على موقع الجيش في غزوة بدر، والتفاوض مع الأحزاب، والخروج من المدينة في غزوة أُحُد، الخ.

#اعتراض: قال تعالى: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)(٧)، وهو يدل على أن كل قول للنبي هو وحي من الله!

لا تعني الآية أن كل قول للنبي وحي إلهي، وإنما سياق الحديث عن القرآن، فحين شكك المشركون في مصدره، وادَّعوا زورًا أن النبي افتراه، رد الله بأن النبي ما ينطق - بهذا القرآن - عن هواه، ولا من تأليفه، بل هذا القرآن هو وحي يُوحى إليه دون تدخل منه. وبذلك فالحديث عن القرآن وليس عن أقوال النبي الدنيوية.

يقول الطبري: "يقول تعالى: وما ينطق محمد بهذا القرآن عن هواه، (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)، يقول: ما هذا القرآن إلا وحي من الله يوحيه إليه"(٨).

ويقول القاسمي: (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)، أي: ما هذا القرآن إلا وحي من الله يوحيه إليه. والضمير للقرآن، لفهمه من السياق؛ ولأن كلام المنكرين كان في شأنه. وأرجعه بعضهم إلى ما ينطق به مطلقًا .. والصواب هو كون مرجع الضمير للقرآن، لما ذكرنا، فإنه رد لقولهم: "افتراه"، والقرينة من أكبر المخصصات. وجلي أنه كثيرًا ما يقول بالرأي في أمور الحرب وأمور أخرى، فلا بد من التخصيص قطعًا"(٩).

وهو نفس ما اتفق عليه الزمخشري، والبيضاوي، والبغوي، والنسفي، وأبو السعود، والرازي، وابن عاشور، ومحمد رشيد رضا.

قلق السعى الى المكانة

#السعي_إلى_المكانة
يسعى كل إنسان إلى أن يحِب، ويُحَب. والمقصود بالحب الموجَّه إلينا: أن نكون محط انشغال وعناية، وحضورنا مُلاحَظ، واسمنا مُسجَّل، وآراؤنا يُنصت إليها، وحاجاتنا مُلباة(١).

هذا الحب والتقدير الموجه إلينا هو ما يجعلنا سعداء، ويهوّن علينا مصاعب الحياة، ودليل ذلك: قارن بين إنسان فقير يعاني من قلة الطعام والعلاج، وينام في البرد، فلا شك أنه يعاني من هذه المعيشة، في حين أن الجندي الذي يعيش نفس المعيشة، بشرط تقدير الناس لمعاناته، تهون عليه هذه المعاناة، ويتقبلها بصدر رحب، ولا يخجل من معاناته، بل ينشرها بين الناس.

إذن فحب الناس وتقديرهم لنا هو مطلب غريزي، ووقود للحياة.

#القلق
كثيرًا ما تشتعل مبارزات وخلافات لأسباب تافهة حول رأي الناس وحكمهم على بعضهم؛ ففي هامبورج عام ١٨٣٤ كتب جنديٌ أبيات شعر تشير إلى ارتخاء شارب جندي آخر، ملمّحًا من خلالها إلى ضعفه الجنسي، مما اتسفز الجندي، فدعى كاتب الأبيات للمبارزة حتى الموت! ولك أن تتصور شابان في مقتبل العمر يتبارزان حتى الموت بسبب قصيدة!

وفي باريس عام ١٦٧٨ قتل رجلٌ آخرَ؛ لأنه قال إن شقته بلا ذوق!

وفي فلورنسا عام ١٧٠٢ فتك أديب بابن عمه؛ لأنه اتهمه أنه لا يفهم شعر دانتي(٢)!

وليست هذه الأمثلة عنك ببعيد، فحتمًا اشتعلت حولك خلافات لأسباب تافهة، وأنت نفسك اشتعل قلبك مرات ومرات لكلمة قيلت عنك، أو إهمال أو قلة تقدير عانيت منه.

وسبب كل هذا القلق أننا لا نطيق كلمة تنتقص من قدرنا ومكانتنا أمام الناس؛ لأننا أصبحنا نستمد قيمتنا وتقديرنا لذاتنا من أحكام الناس، فإن ساد بين الناس أني ضعيف/ غبي/ خسيس، سأرى نفسي فعلًا ضعيفًا/ غبيًا/ خسيسًا، لذلك أقاتل حتى الموت دفاعًا عن شرفي وسمعتي!

وقد يختار البعض اختيارات جوهرية ومؤثرة في حياته لا يرتضيها، فقط لينال تقدير الناس وإعجابهم. فقد يختار زوجة لا يحبها، ووظيفة لا يتقنها، وسكن لا يريحه، وسيارة لا يملك ثمنها، وموبيل لا يستخدم إمكانياته، وتتوالي أكاذيبه أمام الناس عن حياته الشخصية، فقط ليقتنص نظرة إعجاب وانبهار من عيون الناس!

إن كانت المكانة في نفوس الناس تسعدنا، لكن السعي وراءها قد يكون مقلقًا ومؤذيًا !

#أسباب_القلق

#1.الحسد
قد يُعتقد أن التفاوت الكبير بين البشر هو ما يجلب الحسد، لكن الحقيقة على خلاف ذلك؛ فالتفاوت الكبير يصرف الذهن عن المقارنة أصلًا، فلا نرى جنديًا يحسد قائد الجيش على مكانته، لأنه يعرف جيدًا أنه لن يصل لهذه المكانة يومًا ما، بل الحسد يظهر في الحقيقة بين الطبقات المتقاربة، بين جندي وجندي أقدم منه، بين صديقين في كلية واحدة.

قديمًا كان الناس متفهمين لتفاوت القدرات والفرص، لذلك لم يكن التحاسد هو الصفة الغالبة، أما في العصر الحديث فإن توفر المكانيات، وانتشار أخبار الناجحين، وابتذال التنمية البشرية، أقنعوا الكثيرين بأن النجاح سهل، والوصول للقمة ممكن، والتفاوت بين البشر يسير، لذلك طمح كل إنسان أن يتفوق على الجميع، وما المانع أن يكون هو رقم واحد !

وأصبح الفقير يقارنه نفسه بالأغنياء، والموظف يريد أن ينافس صاحب الشركة، والكاتب المغمور ناقم على المشهورين!

والحقيقة أن البشر ليسوا متساوين في القدرات، وإن تساووا، فليسوا متساوين في الفرص(٣).

#2.الطموح_الزائد
يضع وليام جيمس معادلة توضح أنه كلما زادت التطلعات والطموحات، كلما زادت مخاطر الشعور بالمهانة وقلة التقدير(٤.(
ودليل ذلك: قارن بين فنان شاب يشق طريقه في البدايات، فهو سعيد بكل مرحلة يتجاوزها، وكل درجة يخطوها، فمجرد رؤيته لصوره في الشوارع تسعده. أما الفنان القديم الذي ينافس على الصدارة، فكل نجاح غير المركز الأول يحزنه ويُشعِره بالمهانة والفشل!
وليس ذلك دعوة لانعدام الطموح، بل هي دعوة للسعادة بما حققناه، مع بقاء السعي للأفضل.
#3.التطلعات_المتجددة
لا ينكر أحد الفرص الهائلة التي وفرتها لنا التكنولوجيا الحديثة، فقد باتت آمال وأحلام السابقين متوفرة بين أيدينا بسهولة وكثرة، لذلك من المتوقع أن تُشعِرنا التكنولوجيا بالثراء والرضا والاكتفاء .
لكن الواقع عكس ذلك، فأغلبنا يشعر بالحرمان، وإن قارنا بين إنسان في عصرنا الحالي وآخر بدائي يعيش في قرن مضى في قرية زراعية، لا يملك سوى قوت يومه ومزرعته، لكان المزارع أكثر رضًا وارتياحًا! لماذا؟!
لأن التكنولوجيا أتاحت الكثير من احتياجات الإنسان، بل خلقت احتياجات جديدة، ففتحت عينه إلى عدد لا نهائي من التطلعات والاحتياجات، ومهما استطعنا شراء واقتناص بعض ما توفره التكنولوجيا، سيظل دائمًا توجد فجوة بين ما نملكه، وما نتطلع إليه، ولن نستطيع تحقيق حالة الاكتفاء والرضا، وبذلك تظل الحياة انتقال من قلقٍ إلى قلق.
أما مزارع القرن الماضي، فلم يتطلع أصلًا إلى شيء سوى الصحة والغذاء والعائلة، وبمجرد توفرهم، يتملكه الرضا والاكتفاء(٥.(
وبصيغة اقتصادية، فإن تعريف الفقر لا يعتمد على قلة الممتلكات، بل ما يُكسِب الفقر مرارته هو شعور الفقير بأنه أقل ممن حوله، أنه غير قادر على مجاراتهم في الممتلكات والزينة. لذلك يشعر أغلب الناس حاليًا بالفقر؛ لأن ما يفقدوه أكثر بكثير مما يملكوه، والأهم لأن من حولهم يملكون أشياءً لا يملكوها !
#4.العوامل_الخارجية
إن أسباب النجاح والتفوق والثراء والمكانة الاجتماعية تعتمد على عوامل عدة ليست كلها أو حتى أغلبها تحت سيطرتنا، منها مثلًا:
الموهبة: الموهبة هي منحة إلهية تتجلى على أذهاننا دون تحكم، وكما تأتي وحدها، قد تختفي وحدها، فأعظم شاعر/ رسام/ فنان/ كاتب قد يعجز عقله عن الإبداع ويتوقف إلهامه، فتنتهي مسيرته!
الحظ: كثيرون أصحاب مواهب وقدرات لكن وضعتهم الحياة في مكان أو زمان أو وظيفة خاطئة، فكان مصيرهم الفشل!
صاحب العمل: قد يكون نجاحنا متوقفًا على مدير لم يتح لنا فرصة للنجاح، لأنه يختار المتملقين، والكذابين، والمقربين!
الاقتصاد: لا تتخيل أنه ربما حادث تمر به أمريكا يؤثر على اقتصاد بلدك، ومن ثم مستقبلك المالي، وحياتك المهنية، ومن ثم مكانتك الاجتماعية، ويكون عائقًا أمام تقدمك ونجاحك!
ولذلك يظل السعي إلى المكانة عملية مراهنة مقلقة وموترة وغير مضمونة(٦!(
#5.الغطرسة:
بعض الطبقات الاجتماعية لا يحبون أو يكرهون، يقتربون أو يبعدون، بناء على شخصيتك، وقدراتك الذاتية، بل كل ما في الأمر أنهم يضعون فئات محددة في مكانة عالية، فإن انتميت إليها صدفة، كنت صاحب مكانة وتقدير واحترام دون أي جهد، وإلا، فلا مكان لك هنا!
وفي واحدة من أكثر الرسوم الكاريكاتيرية سخرية نجد بنت تقول لأمها: إن عائلة كذا تحبنا، أريد أن ألعب معهم. فتجيب الأم: طالما يحبونا، إذن فهم أقل منا، فيجب أن نبتعد عنهم، ونسعى للتقرب من عائلة مرموقة تتأفف منا(٧ !!(
#الحلول
#1.الفلسفة

تفيدنا الفلسفة وعلم المنطق بوضع قواعد عقلية ومنطقية تمكِّننا من تحليل أحكام الناس، واستخراج مغالطاتهم، وأسباب أحكامهم، وتحليل دوافعهم، وبذلك نستطيع تمييز أحكام الناس الصحيحة عن الأحكام المغلوطة/ العاطفية/ السائرة مع التيار.

وبذلك لا يولي الفيلسوف اهتمامًا كبيرًا بآراء كل الناس، بل يهتم فقط بالنقد المنطقي الصحيح الدقيق، أما الأحكام الخاطئة فلا يوليها أي اهتمام.

وليس ذلك احتقارًا للناس، بل هو يعلم جيدًا كيف يفكر الناس، ولماذا قالوا هذا الرأي، ويعرف أنه حكم خاطيء، لذلك هو يحترم الناس، لكن لا يحترم آراءهم الخاطئة.

وليس ذلك كبرًا وترفُّعًا؛ لأنه أحيانًا قد يمدحه الناس، ويكون أكثر جلدًا للذات وتعذيبًا للنفس؛ لأنه يدرك جيدًا أخطاءه أكثر من غيره.

المهم أن المفكر/ المثقف/ الفيلسوف لا يسأل: ماذا قال عني الناس؟ بل يسأل: هل أصاب الناس في حكمهم؟

فحين سبَّ الناس سقراط، سأله صاحبه: ألا يغضبك أن يطلقوا عليك ألقابًا مهينة؟

فأجاب سقراط: "لم؟! أتظن أن عليَّ أن أنقم على حمار إذا رفسني؟"

وحين سأل الإسكندر الأكبر الفيلسوف (ديوجين): هل تحتاج أي مساعدة؟ فأجاب الفيلسوف: "نعم، ستساعدني إذا ابتعدت عني قليلًا؛ لأنك تحجب الشمس عني!"

و(أنتيستنيس) حين أبلغوه أن أهالي أثينا يمتدحونه، قال: "لماذا؟ ما الخطأ الذي وقعت فيه؟"!

وقد أضاء (إيمبيدوقليس) مصباحًا في النهار، وتجول في الشوارع ينادي: "أبحث عن رجل له عقل !"

يقول (آلان دو بوتون): "لا ينبغي أن نسمح لأي إدانة خارجية أن تحطِّم احترامنا لأنفسنا، إلا إذا كانت صحيحة"(٨).

ويقول (شوبنهاور): "بالتدريج سنصبح لا مبالين تجاه ما يجري في عقول الآخرين عندما نكتسب معرفةً كافية بضحالة أفكارهم وتفاهتهم وتعصب رؤاهم وحقارة عواطفهم وضلال آرائهم. وبعدد أخطائهم .. سوف نرى عندئذ أن كل من يضفي قيمة كبيرة على آراء الآخرين يوليهم شرفًا أكثر مما يستحقون"(٩).

ويضرب (شوبنهاور) مثالًا عمليًا: هل ممكن أن يسعد عازف محترف إن صفق له جماعة من الصم؟!

ويقول أيضًا: التوبيخ والانتقاد يكون مؤلمًا فقط إن ضرب على أوتارنا الحرجة، أما الشخص الواثق في صحة فعله، فهو قادر على ازدراء أي انتقاد.

#2.الفن

لا شك أن الناس في الواقع متفاوتون في الأضواء المسلطة عليهم، فالفنانين والسياسيين والرياضيين محط تسليط الأضواء، والجميع يتابع كل فعل أو قول يصدر عنهم، أما الناس (العاديين)، فلا أحد يعيرهم أي اهتمام. لذلك نسعى ونرغب في التشبه بالمشاهير، وننفر ونهرب من أن نكون بشرًا (عاديين!)

لكن الفن (الروايات/ الشعر/ الرسومات ..) – باعتباره معبرًا عن مكنون النفوس – نجده يسلط الأضواء على مكنون نفوس البشر (العاديين)، فيبهرنا كم هي جميلة، ونقية، وصافية، ومؤثرة.

مثلًا شخصية أم البطل، هي لا تظهر في الصورة، ولا يسقط عليها أضواء، ولا يعرفها أحد، لكنها راضية عن حياتها، راضية عن وضعها في الظل، في الخلف، مع الناس (العاديين)، تفرح بنجاح البطل أكثر من فرحته هو بنجاحه.

هذه النفوس ليست كما يُشاع عنها أنهم بشر عاديين وفارغين وتافهين ومملين، بل هي نفوس راضية ومطمئنة، تُحسد على سعادتها وصفائها، ولا يهمها قول الناس ولا أضوائهم.

تعبِّر الروائية (ماري آن إيفانس) عن هؤلاء الناس (العاديين) فتقول: "إذا كانت أموري أنا وأنت ليست في غاية السوء، كما كان ممكنًا لها، فنصف الفضل في ذلك يرجع إلى عددٍ من الناس الذي عاشوا حياة خفية في الظل، مفعَمين بالإخلاص، ثم استراحوا في قبورٍ لا يزورها أحد"(١٠).

#3.السياسة

إن تتبعنا الحياة الاجتماعية للمجتمعات والثقافات عبر العصور سنجد أن معايير كل مجتمع للإنسان المثالي متباينة تمامًا :

في إسبرطة، كان الإنسان النموذجي هو الرجل ذو العضلات الضخمة، الشهواني.

وفي أوروبا الغربية ٤٧٦-١٠٩٦م، سنجد الإنسان الذي ينال احترام الناس هو القديس الخلوق الزاهد.

وفي أوروبا الغربية ١٠٩٦-١٥٠٠م، سنجد صورة الفارس المنتصر هي محل تقدير الجميع.

وفي إنجلترا ١٧٥٠-١٨٩٠م، كان الناس يتنافسون في إتقان الرقص مع البنات، حتى إن واحدًا من سادة المجتمع كتب إلى ابنه رسالة ينصحه فيها بأن الرجل النبيل هو الذي يتقن الرقص مع السيدات!

أما في عصرنا الحالي، فمعيار التفوق وعلامة التميز هي الشخص الغني المشهور.

إذن فأقل تتبع للمجتمات، يعلمنا أن هذه المعايير الحالية ليست منقوشة على الصخر، بل هي بنت المجتمع، وبنت اللحظة، فحتمًا سيتغير الحال وحتمًا ستبرز قيم أخرى للتميز.

والأهم من أنها متغيرة، أنها غير صحيحة؛ فتصور أن الشخص الغني المشهور لم يغتنِ ويشتهر إلا لأنه ناجح ومتميز غير صحيح؛ لأن للشهرة والغنى أسباب خارجية كثيرة مثل الحظ، والظروف، والمرض، والحوادث العارضة، ونوائب الأيام، وتوفر الفرص، والمكان، والتوقيت، وكل هذه عوامل يصعب التحكم بها.

وبذلك فمن يتبع رضا الناس وتقديرهم هو كالبهلوان الذي يتلون ويتلوى ليعجب جمهور حفلة الليلة !

#4.الأولويات

قد يعتقد البعض أنه يعرف جيدًا ما يريد، ويحدد أولوياته بدقة وحسم، لكن يقول (جان جاك روسو): إن عقولنا عجينة طرية تؤثر فيها أصوات المجتمع لتطمس رغباتنا الشخصية الداخلية، وتحل محلها رغبات أخرى، وتخبرنا بما ينبغي أن نفعله، وبما نحتاج إليه، وبما يُشعِرنا بالرضا.

فما تظن نفسك ترغب فيه، هو في الغالب نتاج توجيه المجتمع لعقلك، فقد زرع المجتمع في عقلك رغبات، وأعاد ترتيب أولوياتك، والأصعب أنه أقنعك أن هذه هي رغباتك أنت!

لعل دليل ذلك: حالة الإنسان وهو يلهث وراء أحدث المنتجات وأحدث الموديلات، فهو يظن أن الرضا والسعادة معلبين في المنتج الجديد، لكن بمجرد شراءه، يشعر بالفتور والنفور، كأن ساحرًا كان يجذبه دون وعي !

ويعتبر (جان جاك روسو) أن تاريخ العالم ليس خطوات للأمام، بل هي ردة للخلف؛ فالعالم يتنافس وينجرف نحو رغبات ليست رغباتنا، وحياة لا تمس ذواتنا. أما الإنسان البدائي فكان يعرف جيدًا ما يريد، لذلك اهتم بدينه، وأسرته، وطعامه، وتذوقه للجمال، فكانت حياته كما أرادها هو لنفسه(١١).

يقول (آلان دو بوتون): "إن جوهر الاتهام الموجه ضد النموذج المعاصر للمكانة العالية أنه مُدان بتشويه سلم الأولويات. ورفعِه للغنى إلى أعلى درجات الأولويات"(١٢).

ويحاول (راسكين) إعادة ترتيب الأولويات، فيطالبنا بالتخلي عن تصورنا الساذج بأن السعادة تكمن في الثروة والتملك، ويقول: "لا ثروة غير (الحياة) ذاتها، الحياة بكل ما تنطوي عليه من قدراتٍ على الحب والمسرَّة والإعجاب. إن أسعد الناس هو أنفعهم للناس"(١٣).

#5.الدين

دعنا نفترض أنك نلت إعجاب وانبهار الناس، وأصبحت أشهر كاتب أو فنان أو سياسي، ثم، ماذا بعد؟

إن كل سعي دنيوي مصيره الزوال، فبمجرد الموت، ستحتضر وحدك، وترحل وحدك، وتُحاسب وحدك، وتلقى مصيرك وحدك.

حتى الذكرى المتروكة، ستقل وتذبل حتى تموت!

إن صورة فأران يتناطحان ويتنافسان على الطول هي صورة لها معنى، لكن صورة هذان الفأران يتناطحان بجوار برج شاهق هي صورة هزلية وساخرة!

كذلك سعينا لننال مكانة في نفوس غيرنا يبدو أن له معنى في الدنيا، لكن إن عرفنا أن كلانا سيزول ويزروه التراب، سيصبح هذا السعي هباء!

]يضرب (علي عزت بيجوفيتش) مثالًا بديعًا لهذه الحالة برجل يغش صاحبه وهما على سفينة تيتانيك[!

بصيغة أخرى: ماذا يفيد الاحتفاظ بمكانة وممتلكات في بلد إن كنا نستعد للسفر ؟!

إن كل سعي لا يكون الله في آخره ومنتهاه فهو زائل !

#الخلاصة:

نحن نسعى لإرضاء الله، ولراحة ضمائرنا .

وإن أحبنا الناس، فهي نعمة نقدّرها ونمتنُّ لها، ونتمسك بها، أما السعي وراءها لذاتها، فهو عملية مقلقة ومؤذية.

وقيمة الإنسان ومكانته يستمدها من داخله: أخلاقه، وصفاء قلبه، ولا ينتظرها من غيره